جيش الشرق

الجنود الفرنسيون في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١

تيري كرودي

نقله إلى العربية: د. أحمد العدوي





الجنود الفرنسيون في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١

عرض المؤلف -في هذا الكتاب- شهادات كثيرة لعدد من الضباط والجنود والمدنيين الناجين من رجال الحملة -التي يستأثر شاتو دي ڤينسين Chateau de Vincennes بمعظمها- عن مختلف أوجه حياتهم في مصر، وانطباعاتهم عنها، ودورهم في الأحداث التي شاركوا فيها.

وسنرى أن المؤلف يلعب دورًا لم يعتَدْهُ المؤرخون، بل لا يفضلونه، أو بالأحرى لا يجيدونه في الغالب. سيتوارى المؤرخ تمامًا، وسينكر ذاته ليفسح المجال لشهود العَيَان ليرووا تلك الأحداث التي شاركوا في صنعها بأنفسهم، وهي إن كانت روايات من جانب واحد وتعكس وجهة نظر المحتل فحسب، فقد جاءت متماثلة مع مشروعه الذي صدَّر به كتابه "الجندي الفرنسي في مصر". وسوف يتضاءل دور المؤرخ إلى أقل من دور الراوي في الروايات الأدبية. فلن يتعدى دوره الربط بين تلك الشهادات التي جاءت تترى على ألسنة أصحابها. كما سيترك المجال لمخيلة القارئ في التحليل والاستنباط، بحيث ستكون الانطباعات والخاتمة من صنع القارئ وحدَهُ.

إنها رحلة ممتعة عبر انطباعات "الآخَر" وأفكاره ومشاعره وأخلاقه وانعكاسها على سلوكه، حيث ترك مؤلف هذا الكتاب "تيري كرودي" العنان لذكريات رجال الحملة الفرنسية في مصر تتدفق على ألسنة أصحابها لتعبر بأبلغ عبارة عن حياة الجنود الفرنسيين في مصر إبَّان الحملة. ولا ننسى الإشادة بدور "كريستا هوك" التي زوَّدت النصّ بعدد كبير من اللوحات، فزادت النصّ توثيقًا ووضوحًا في مخيلة قارئه، كما أضفت عليه جمالاً وتشويقًا لا يُنكران.

صورة الغلاف: معركة الأهرام، للفنان الفرنسي لويس فرانسوا لوجينيه Louis-François Lejeune (فرغ منها ١٨٠٧م).

الثمن: ٨ دولارات أو ما يعادلها

ISBN 978-977-6459-17-5





جيشُ الشّرق

الجنُود الفرنسيُّون في مصر

١٧٩٨ - ١٨٠١



جيشُ الشّرق

الجنُود الفرنسيُّون في مصر

١٧٩٨- ١٨٠١

تأليف

تيري كرودي

أعدَّ اللوحات والخرائط

كريستا هوك

نقله إلى العربية

د. أحمد العدوي



الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٧م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٦/٢٥٨١٢

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-17-5

مدارات للأبحاث والنشر

٥ شارع ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

info@madarat-rp.com

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب:

French Soldier in Egypt, 1798–1801, *The Army of the Orient,*

By *Terry Crowdy,* ***Illustrated by*** *Christa Hook*

نُشر برقم ٧٧ ضمن سلسلة تحمل عنوان "المقاتل" "*Warrior*"

Osprey Publishing, Oxford, 2003.

* صورة الغلاف: معركة الأهرام للويس فرانسوا لوجينيه Louis-François Lejeune

(1775-1848)، فرغ منها عام ١٨٠٧.

إهداء

إلى روح كل شهيد سقطَ وهو يقاوم مُحتلًّا غاصِباً عبر العصور

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

[آل عمران، ١٦٩-١٧١]



فهرس الموضوعات

مقدمة المترجم

(١)

ثمة قصةٌ لترجمتي لهذا الكتاب، لا أرى بأسًا في إطلاع القارئ عليها.

لستُ أذكر أحداثًا من التاريخ قد تركت أثرًا في نفسي -منذ طفولتي حتى الآن- كما تركت الحملة الفرنسية على مصر. إذ على الرغم من إقامتي الدائمة بالقاهرة مُذ وعيت على الدنيا، إلا أن والدي كان يحرصُ على أن نقضي الصيفَ كاملًا - أو يكاد - في قريتنا، بني عدي (مركز منفلوط بمحافظة أسيوط). وكنت أتُوق للسياحةِ في جوانبها، وهو شغفٌ لم أفقده بعد حتى يومي هذا. وكنت أُلاحظ - في طفولتي - مقابرَ مُنفصَلة تقع على زمام القرية من الجهة البحرية. وكان مكان تلك القبور غريبًا ولافتًا للنظر، كان موضع هذه المقابر مثيرًا للانتباه، خلافًا لعادة أهل البلدة في دفن موتاهم في الجبل الغربي، وكذلك كانت تلك العناية التي كان أهل القرية يحيطون بها هذه المقابر تثير دهشتي. فعلى الرغم من آثار الزمن الواضحة عليها، فإن أهل البلدة لم يهملوا يومًا ترميمها وطلاءها بالجير الأبيض، كما وُضعت العِمامة (رمز الولاية) على شواهد كثير منها، في حين أن تلك

المظاهر من العناية لم تكن تظهر على قبور الجبل الغربي القديمة التي كانت تُترك لمصيرها المحتوم فتصبح أثرًا بعد عين، ولو بعد حين من الدهر!

ولست أذكر متى سألت والدي -وقد اصطحبني ذات يوم لقراءة الفاتحة على أرواح أهل هذه المقابر- أبي ماذا عن هؤلاء المدفونين هنا؟ أهم من أقاربنا؟ ولماذا دفنُوا هنا ولم يدفنوا بالجبل؟! ولماذا بُني هذه البناء (كان نصبًا تذكاريًّا شيَّدته محافظة أسيوط التي اتخذت من ذكرى مُقاومة أهل بني عدي لجنود الحملة الفرنسية عيدًا قوميًّا لها) على مدخل هذه المقابر؟ أسئلةُ كثيرةً على هذه الشاكلة حاصرته بها. وأذكر من إجابته -المسهبة - أن هؤلاء هم الشهداء الذين سقطوا أثناء مقاومة قوات الجنرال دافو، وقد دفنُوا حيث استشهدوا. فسألته من يكون دافو هذا؟ فأجابني هو أحد قادة الجنرال ديزيه. فسألته ومن يكون ديزيه؟ فأجابني هو أحد كبار قادة نابليون بونابرت الذي قاد الحملة الفرنسية على مصر. ولما بدا اسم نابليون مألوفًا لي - على نحو ما - فلم أسأله من يكون. ثم شرع أبي في سَرد أسماء كثير من هؤلاء الشهداء. وأشار بعد ذلك إلى تبةٍ عالية تشرف على القرية (تبة السبع بنات) استخدمها الجنرال دافو لنصب مدافعه التي صبت حممها فأصلت أهل القرية، وأسقطت عددًا جمًّا من الشهداء الذين خرجُوا - بعصيهم وفؤوسهم وسيوفهم وغداراتهم القديمة - عاريةً صدورهم لمواجهة الجيش الفرنسي، فلم يهابوا الموت قط، ولم يفروا من أعدائهم الأكثر عُدة وعتادًا وتمرسًا بالقتال، فظفروا -بعد الشهادة- باحترام أعدائهم

وبإقرارهم بأنهم أشجع أهل مصر *Les plus braves de l'Égypte*[(١)].

وهكذا تركت الحملة الفرنسية آثارها على تكويني النفسي والثقافي منذ طفولتي، فحفظت أسماء دافو وديزيه ونابليون قبل أن أتلقى أولى معارفي عن تاريخ مصر، قديمه قبل حديثه. وظلت الحملة الفرنسية -من وقتها- لا تبرحُ مخيلتي، فلم يضعف شغفي بتتبع أخبارها، وجمع مصادرها. ولم يكن من عادتي أن أترك كتابًا يحمل عنوان الحملة الفرنسية، أو يتعلق بها من قريب أو بعيد إلا استعرته أو اقتنيته أو طالعته في مكتبة عامة، حتى أضحت الكتب التي تتعلق بالحملة تحتل قسمًا لا بأس به من مكتبتي الخاصة.

وقد أخذتني حمية الشباب ذات يوم، فأخذت على نفسي عهدًا أمام قبُور هؤلاء الشهداء بتأليف كتاب عن الحملة الفرنسية على مصر أُهديه لأرواحهم. وهكذا ظل ذاك العهد الذي قطعته على نفسي ماثلًا أمامي، يقضُّ مضجعي، ويذكرني بنفسه كلما استطاع إلى ذلك سبيلًا. ثم أصرف نفسي مُتعلِّلًا بضيق الوقت وكثرة الشواغل ... إلخ. وهكذا مضت السُّنون بي ولم تزل فكرة تأليف كتاب عن الحملة الفرنسية على مصر تُراودني. ولم أزل على عادتي في صرف نفسي وإلهائها وتعليلها بإرجاء ذلك لمجال أرحب،

---

(١) عن ثورة أهل "بني عدي" على الجنرال ديزيه انظر: الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن الجبرتي المتوفى ١٢٣٧هـ/١٨٢١م)، تاريخ الجبرتي المسمى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (بيروت، دار الجيل، [د.ت])، ٢: ٢٧٣. وانظر أيضًا: نبيل السيد الطوخي، صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧)، ١٧١-٧٥.

فأُحْجِمُ بعد إقدام. وأخيرًا حزمتُ أمري وقررت ترجمةَ كتابٍ عن الحملة الفرنسية بدلًا من التأليف عنها؛ لأُوفي بذلك دينًا قديمًا، وأُنفذ عهدًا لطالما حالت الأيام بيني وبينه.

ووقع اختياري على هذا الكتاب لما تميز به من شهادات حية لرجال الحملة -عسكريين ومدنيين- لم يداخلها التَّفسير أو التحليل أو التأويل، وقد تركها المؤلف -بمهارة- تجري على ألسنة أصحابها، ولم يتدخل في هذا السردِ إلا قليلًا. ناقلًا صورةً قد يصح وصفها بصورة الآخر. وهي صورة لا غنى عنها إذا أردنا التأريخ لهذه الحملة التي غيرت وجه تاريخ مصر والشرق الأوسط إلى الأبد. فمن خلال هذا الكتاب سيحظى القارئ ببعض الأجوبة عن أسئلة قديمة جديدة تتعلق بهوية هؤلاء المستعمرين الذين طرقوا أبواب مصر، لماذا جاءوا؟ هل تطوعُوا أم جُندوا؟ وكيف وجدوا مصر والمصريين؟ وكيف سارت أمورهم بعد أن تقطعت بهم السبل بينهم وبين وطنهم؟ وكيف استقبلوا نبأ إغراق البريطانيين لأسطولهم في البحر، وانعكاس ذلك حول أمد بقائهم في مصر الذي بدا لهم أجلًا غير مُسمى، وذلك خلافًا لما وعدهم به بونابرت بالعودة إلى فرنسا خلال ثلاثة أشهر وفي جيوبهم ما يكفي من المال لشراء ستة هكتارات من الأرض.

(٢)

لا ريب أن الهدف الأولي للتاريخ -كما يقول بول ڤين *Paul Veine*- هو رواية الأحداث كما جرت وقائعها في الماضي. ويتفرع عن ذلك كل ما

قد يندرج تحته من تفسيرٍ أو تعليل أو استقراءٍ للنتائج المترتبة على هذا الحدث أو ذاك. وبما أنه رواية للأحداث في المقام الأول فلن يبعث الحياة -بتفصيلاتها- في هذه الأحداث المروية إلا الوثائق المعاصرة وروايات شهود العيان من المشاركين في صناعة هذا الحدث. هنا تتحول كتابة التاريخ إلى روايةٍ أدبيةٍ معبرة عن تجربةٍ مَعيشةٍ، بحيث تخرج من يد المؤرخ مُنتميةً - على نحو مباشر - إلى الشخصيات الرئيسية الفاعلة، أو القائمين بالأدوار الرئيسية في صناعة ذلك الحدث.

إن المؤرخ - والحالة هذه - يقوم بالانتقاء والتنظيم، بحيث يمكنه الإلمام بقرن كامل في صفحة واحدة. وهذا ليس بعيدًا عما نقوم به نحن في أنفسنا حينما نسترجعُ أحداث السنوات العشر الأخيرة التي عشناها في ساعةٍ أو بعض ساعةٍ. وهذا التأمل في المسافة الشاسعة التي تفصل دائمًا بين الواقع المعيش وبين استرجاعه - أو بالأحرى تذكره بروايتنا - لن يؤدي بالمؤرخ إلا إلى التحقق من أن "موقعة الأهرام/إمبابة" ليست الشيء نفسه عند جُندي عادي في جيش نابليون وعند أحد جنرالاته أو عند أحد المماليك. فمن الممكن رواية أخبار تلك الموقعة بضمير المتكلم أو بضمير الغائب. ومن الممكن كذلك روايتها بحيث تكون الخاتمة متوقعة منذ البداية، ومن الممكن أيضًا التظاهر باستنباط تلك الخاتمة. وكل هذا من شأنه أن يكشف للمؤرخ عن طبيعة روايات شهود العيان، وحتمية اختلافها بل وتناقضها - أحيانًا - فمن الممكن أن يتحدث اثنان من الجنود

اللذين قاتلا في الفَصيل نفسه وفي المكان نفسه، وتعرَّضا للظروف نفسها، فيعلّل أحدهما أسباب الهزيمة بشجاعة الخصم، بينما يعلّلِها الآخر بالتقاعس أو التواطؤ والخيانة!

وحتى لو كنت معاصرًا لمعركة الأهرام وشاهد عيان، بل حتى لو كنت الشخصية الرئيسية فيها (نابليون أو مراد بك) فليس بوسعك إلا أن تعكس وجهة نظر محددة حول ما يطلق عليه المؤرخون اسم حدث "معركة الأهرام"، وما كنت مُستطيعًا إلا أن تترك للأجيال اللاحقة شهادةً - مجرد شهادةٍ - عن تلك الأحداث. وبناء على ذلك لن يكون تفسير المؤرخ للحدث مماثلًا لتفسير زملائه، إذ بوسع كل واحد من هؤلاء أن يروي ذلك الحدث بصيغته الخاصة، ووفقًا لقراءته الخاصة لمصادر هذا الحدث. بل قد يظن المؤرخ أنه قد وقف على دقائق هذا الحدث وألَمَّ به على نحو أفضل مما وقف عليه شهود العيان أنفسهم. أي أن التاريخ في -التحليل الأخير- هو رواية على لسان المؤرخ، لا على لسان تلك الشخصيات الفاعلة نفسها.

ولذلك سنرى أن المؤرخ -في هذا الكتاب- سيلعب دورًا لم يعتده المؤرخون، بل لا يفضلونه، أو بالأحرى لا يجيدونه غالبًا. سيتوارى المؤرخ تمامًا، وسيُنكر ذاته مفسحًا المجال لشهود العيان ليرووا تلك الأحداث التي شاركوا في صنعها بأنفسهم، وهي وإن كانت روايات من جانب واحد

وتعكس وجهة نظر المحتل فحسب، فقد جاءت متماثلة مع مشروعه الذي صدَّر به كتابه "الجندي الفرنسي في مصر". وسوف يتضاءل دور المؤرخ إلى أقل من دور الراوي في الروايات الأدبية. فلن يتعدى دوره الربط بين تلك الشهادات التي جاءت تترى على ألسنة أصحابها. كما سيترك المجال لمخيلة القارئ في التحليل والاستنباط، بحيث ستكون الانطباعات والخاتمة من صُنع القارئ حصريًّا.

(٣)

عرض المؤلف شهادات كثيرةً لعدد من الضباط والجنود والمدنيين الناجين من رجال الحملة -التي يستأثر أرشيف شاتو دي ڤينسين *Château de Vincennes* بمعظمها- عن مختلف أوجه حياتهم في مصر، وانطباعاتهم عنها، ودورهم في الأحداث التي شاركوا فيها. وهم بترتيب ورود شهاداتهم في هذا الكتاب، ودون أدنى اعتبار للمكانة أو الرتبة:

لدينا - أولًا- شهادة جندي البحرية سانجل-فيريير *Sangle-Ferriere* وهي شهادة حية سردها مواطن ثري تعود أصوله إلى مدينة كلامسي *Clamecy*، وكان شاهد عيان على معركة أبي قير البحرية، كما قدم وصفًا مُسهبًا للحياة الاجتماعية في مالطا زمن الحملة. كما ظل الجزء المتعلق بخدمته في الإسكندرية مثار اهتمام المؤرخين عند تناولهم لأوضاع القوات الفرنسية المتمركزة هناك، ويُعوِّل المؤرخون على روايته لإجراءات

الحجر الصحي المفروض على الجنود عند عودتهم إلى وطنهم. وقد نشرت مذكرات سانجل-فيريير للمرة الأولى على يد ليو ميرو *Léon Mirot* في باريس عام ١٩١٣.

لدينا أيضًا شهادة الضابط الفارس! وهو ضابط فرنسي مجهول الشخصية، اصطلح المؤرخون على تلقيبه بهذا اللقب، وهو ضابط خدم بسلاح الفرسان، وانتمى إلى الفوج الرابع عشر/فرسان. وقد نُشرت أوراقه بباريس عام ١٨٩٩. حيث ألقت الضوء على طبيعة الدور الذي قام به سلاح الفرسان في المعارك المختلفة التي خاضها الجيش الفرنسي في مصر والشام، كما قدم تقريرًا مفصلًا عن معركة الناصرة/*Lubya* التي خاضها الجنرال جونو *Junot* ضد الجيش العثماني قُرب الناصرة.

من بين شهودنا أيضًا چان پيير دوجيرو *Jean-Pierre Doguereau* الذي بدأ حياته العسكرية ضابطًا في سلاح المدفعية عام ١٧٩٣، وخدم في جيش الراين *l'armée du Rhin* وأبلى بلاء حسنًا، ثم ما لبث أن التحق بجيش الشرق *L'armée d'Orient* وشارك في معارك: شبراخيت والأهرام/إمبابة، كما شارك في حملة نابليون على الشام، فاشترك في حصار يافا وعكا، وعاد إلى فرنسا على متن السفن البريطانية. ثم لم يلبث أن ترقى إلى رتبة جنرال عام ١٨١٥، وتولى رئاسة مدرسة المدفعية، وتوفي في آيسن *Aisne* في العشرين من أغسطس عام ١٨٢٦.

ومنهم أيضًا فرانسوا بيرنوي *François Bernoyer* كبير الخياطين بالحملة. الذي رافق نابليون على متن أسطول تولون، وخلَّف لنا أوراقه المتمثلة في ١٩ خطابًا أرسلها إلى فرنسا في تواريخ متفاوتة إبان مقامه في مصر، وقد ألقت الضوء بشكل رئيسي على علاقته بالقائد العام، وكذلك على طبيعة عمله بمصر، والأسباب التي أحاطت بتغيير الزي الرسمي لجنود الحملة في مصر مرات عدة.

لدينا أيضًا مقتطفات مهمة من رواية جراندچان *Grandjean* وهو رجل مدني التحق بجيش الشرق بصفته مقاولًا أو متعهدًا. ونحن مدينون له بوصف الإسكندرية والقاهرة ورشيد. وكذلك إسهابه في الحديث عن مشاريعه الخاصة المرتبطة بالجيش في القاهرة، وأوضاع الصناعة الفرنسية في مصر.

وترتبط بشهادة جراندچان شهادة الملازم لاڤال *Lieutenant Laval* على الرغم من أنه لا رابط مباشر بينهما، اللهم إلا نشرهما معًا في كتاب واحد صدر للمرة الأولى في القاهرة عام ١٩٤١ باعتناء المستشرق الشهير جاستون ڤييت *Gaston Wiet*. ثم أعيد طبعه بباريس عام ٢٠٠٢. كان لاڤال من المتطوعين الذين خدموا بكتيبة *Lozère*، قدم شهادته على أحداث الحملة كما رآها كجندي في المقام الأول.

من بين شهودنا أيضًا شخصية مرموقة، ألا وهو يعقوب فرانسوا ميو *Jacques François Miot* (١٧٧٩-١٨٥٨) وهو الشقيق الأصغر لأندريه

ميو *André-François Miot* محافظ ميليتو *Melito*. والرجل القوي في إمبراطورية نابليون فيما بعد. خدم بالجيش ضابطًا منذ شب عن الطوق، ورحل مع جيش الشرق من ميناء تولون وعمره أقل من عشرين عامًا، وكان كتابه عن الحملة الفرنسية على مصر من أوائل المطبوعات التي نشرت عن الحملة، إذ صدرت في حياته في باريس من أجزاء عدة عام ١٨٠٤.

كما لدينا أيضًا شهادة تشارل أنطوان موران *Charles Antoine Morand* الضابط القانوني، أو القانوني الضابط، الذي درس القانون ثم التحق بالجيش الفرنسي حيث عيِّن نقيبًا عام ١٧٩٢. ثم ترقى إلى رتبة عقيد، وخدم في جيش الراين *l'armée du Rhin*، ثم في جيش الشمال *l'armée du Nord*، وأخيرا التحق بجيش الشرق فكان من قادة الفوج الثامن والثمانين من فرقة الجنرال ديزيه *Desaix* التي دوَّخت المماليك بالصعيد. وشارك موران مشاركةً فعالة في معركة سدمنت *Sediman* حيث استبسل المماليك في القتال على الرغم من هزيمتهم في نهاية الأمر.

ومن بين شهودنا أيضًا تشالبران *Chalbrand* وهو ضابط برتبة عقيد، وأحد الضباط المثقفين في جيش الشرق، فقد قرأ كل ما وصل إلى يده من المصادر الشرقية القديمة، مثل هوميروس وهيرودوت وسترابو وبلليني، إضافةً إلى قراءاته المعمقة في الإنجيل، وسائر كتابات الرحالة الذين زاروا الشرق في العصور الوسطى.

لدينا أيضًا شهادة الرسّام دومنيك ڤيڤان دينون *Dominque Vivant Denon* وهو أحد أعظم الفنانين الفرنسيين الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر، وقد عهد إليه برسم ١٥٠ لوحة في كتاب وصف مصر *Description de l'Ègypte*، أعظم إنجازات الحملة الفرنسية على مصر، كما أصدر تقريره عن حياة رجال الحملة في مصر فور عودته إلى باريس عام ١٨٠٢ في مجلدين كبيرين، كانا أول ما طُبع في باريس عن الحملة على مصر.

ولن يتسع المقام هنا للتعريف بجميع شهود العيان من الجنود الفرنسيين في هذه المقدمة - التي أردتها مُوجزةً فطالت - فمنهم العريف كايو *Cailleux*، والرقيب أنطوان بونيفونس *Antoine Bonnefons*، والنقيب چوزيف-ماري مواريه *Joseph- Marie Moiret* وهو الوحيد من بينهم الذي نقلت مذكراته كاملةً إلى العربية[١]. فضلًا عن كبير أطباء الحملة الطبيب ديچينيت *Desgenettes*، والجنرال كليبر *Kléber* المقتول في مصر، وهو أشهر من أن يُعرَّف. ورئيس أركانه أوغست داماس *Auguste Damas*، والنقيب ڤيرتراي *Vertray*، والجنرال بليار *Belliard*، وجندي البحرية بارّاليه *Barralier* الذي انضم إلى المشاة من فوج البحارة عند تأسيسه لاحقًا، وكان أحد المشاركين في مجزرة كفر شباس (شباس الشهدا حاليًا)، وأخيرًا جندي المشاة پيير ميلّيه *Pierre Millet*.

---

(١) نقلتها الدكتورة كاميليا صبحي إلى العربية، بعنوان: "مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر"، وظهرت طبعتها الأولى بالقاهرة عن المركز القومي للترجمة، عام ٢٠٠٠.

وكان بإمكان المؤلف أن يضيف إلى شهاداتهم شيئًا مما ورد في مذكرات نابليون، التي عكف على إملائها على رجاله في منفاه الجبري في سانت هيلانة *Saint Helena*، ولكنه لم يفعل، ربما بسبب اختلاف نوعيتها عن هذه المذكرات، فقد قام نابليون بسَردها بعد مدة طويلة من حملته على مصر، وغلب عليها الطابع التبريري والمؤامرة وادعاء الحكمة بأثر رجعي. وهي سمات تخلو منها تمامًا -كما سيلاحظ القارئ- أوراق وشهادات الجنود والضباط المذكورين أعلاه التي امتازت بالحيوية والصدق والعفوية.

(٤)

غطت شهادات الجنود نطاقًا واسعًا من جوانب حياتهم إبان مقامهم بمصر، فسنسمع أصواتهم منذ الحشد للحملة والاستعدادات للإبحار، ولا سيما عبر موانئ تولون *Toulon* وتشيفيتافيكيا *Civitavecchia* وجنوة *Genoa*. وسنتعرف على دوافع كثير منهم للانضمام إلى الحملة، كما سنقف عن كثب على تخميناتهم بخصوص أهداف الحملة. وعلى جوانب من حياة جنود الحملة على متون السفن حتى وطأت أقدامهم الشواطئ المصرية، مرورًا بأوضاعهم النفسية وحالتهم المعنوية بعد شيوع نبأ غرق أسطولهم في أبي قير في أوساطهم. ومعرفتهم بأن وعود نابليون بإعادتهم إلى فرنسا بعد ثلاثة أشهر قد ذهبت أدراج الرياح بعد أن تقطعت السبل بهم في مصر.

تأخذنا شهادات جنود الحملة بعد ذلك إلى أيامهم الأولى في مصر، ولا سيما وقد وجدوا أنفسهم في عالم آخر - بكل ما تحمله تلك الكلمة من

معان - مختلف تمامًا عن عالمهم الذي خبروه في أوروبا. فيُسهبون في الحديث عن رغبتهم في تحسين علاقتهم بأهل مصر، وعن تكيفهم القسري مع الأوضاع فيها، ولا سيما بعد غرق أسطولهم في أبي قير. كما سنتعرف على بعض الإجراءات التي اتخذتها قيادة جيش الشرق تجاه إدمان الجنود - المنهارين معنويًّا - لنبات القُنَّب الهندي (الحشيش). ثم نستمع إلى شكواهم المتكررة من المناخ والحشرات والهوام والأمراض المتوطنة وتأثير ذلك عليهم. ثم رحلة نابليون الشهيرة إلى السويس، والطرق والحيل التي لجأ إليها الفرنسيون للإحلال والتجديد وتدعيم صفوفهم بعد غرق أسطولهم وانقطاع المدد عنهم.

أما القسم الثالث والأخير من هذا الكتاب فيتناول أخبار الحملات والقتال، ولا سيما مع المماليك والجيوش العثمانية. فسنمضي قُدمًا مع الجنود الفرنسيين لنستطلع آراءهم في فرسان المماليك وأساليبهم في القتال، ونتعرف عن كثب على تفسيراتهم لأسباب فشل المماليك والعثمانيين، واستمرار هزائمهم المعركة تلو الأخرى مع الجيش الفرنسي، من شبراخيت والأهرام إلى سدمنت والناصرة وأبي قير وعين شمس.

ثم سنذهب معهم إلى الشام لنرافقهم أثناء اجتيازهم صحراء سيناء وصولًا إلى العريش ثم إلى غزة، وما اعترى رحلتهم من صعوبات تمثلت في شح الأقوات وندرة المياه، إضافة إلى الرعب الذي شكلته غارات العُربان على مؤخرتهم، وأثر ذلك النقص الحاد في ذخيرتهم إضافةً إلى تلك

المقاومة الجدية التي أبداها المدافعون عن غزة ثم عن يافا. وسنتعرف من خلال شهاداتهم على تفاصيل مذابح ومجازر مروعة ارتكبوها في حق السُّكان العُزَّل ولا سيما في يافا. كما سنستمع إلى تلك المبررات التي ساقوها لتعليل تلك الأعمال التي قد تقصُر كلمة "وحشية" عن وصفها.

وسنقف - من خلال كتاباتهم - جليًّا على الكيفية التي انهارت بها سمعة نابليون بينهم، فلم يعد ذلك "القائد المُلهَم الذي لا يُقهر" بعد فشله في اقتحام عكا وسوء إدارته للحصار، وعدم مبالاته بدماء جنوده، وطبيعة الضغوط التي أجبرته على التنازل عن قيادة حصار عكا للجنرال كليبر *Kléber* إبان الأيام الأخيرة في حصار تلك المدينة العصية، وتأثير ذلك القرار على معنويات الجنود.

ثم سنخوض من خلال شهادات الجنود الفرنسيين في أُحجيةٍ من أحاجي التاريخ، ألا وهي تسميم الجنود المصابين بإصابات بالغة في الحرب جنبًا إلى جنب مع الجنود المصابين بالطاعون بواسطة جرعةٍ زائدة من الأفيون أُعطيت لهم في الحساء عشية انسحاب الجيش الفرنسي من أمام أسوار عكا، هل أمر نابليون بهذا أم لا؟ فمهما قيل عن الصعوبات التي حالت دون إخلائهم، نظرًا لكثرة أعدادهم وقصور مركبات الجيش عن حملهم، إضافةً إلى طول الرحلة عبر الصحراء، وضعف فرص احتمالهم للعطش والحرارة الشديدة، واحتمالات تفشي عدوى الطاعون بين الجنود الناجين جراء اختلاطهم بالمصابين، والحيلولة دون تسرب خبر انتشار

الطاعون في صفوف الجيش الفرنسي إلى الأسطول الإنجليزي المرابط عند سواحل الإسكندرية وأبي قير. بغض النظر عن كل هذه المبررات (وبعضها منطقي بالفعل) فإن ما رسخ في أذهان الجنود الفرنسيين هو أن نابليون أراد دخول القاهرة في صورة القائد المنتصر، وكان هؤلاء الجنود - سواء المصابين في المعارك أو المصابين بالطاعون - عقبةً حقيقيةً أمام تلك الصورة التي أراد القائد العام الظهور بها أمام المصريين.

وعلى أية حال سنتعرف معًا من خلال شهادات رجال الحملة - وعلى رأسهم الجنرال كليبر *Kléber* - على خيوط هذه القضية المعقدة التي تنصل منها - فيما بعد - كل من أمر بها أو شارك فيها وعلى رأسهم نابليون بونابرت نفسه، الذي استمات في الدفاع عن نفسه - في مذكراته - ضد هذه الاتهامات. ثم نتعرف من خلال شهادات الجنود الفرنسيين على رد فعل العثمانيين (الإنساني) تجاه الجنود الجرحى والمصابين بالطاعون. حيث وجد هؤلاء الجرحى والمطعونين في أعدائهم إنسانيةً ورحمةً افتقدوهما في قياداتهم!

وأخيرًا سنعود مع هؤلاء المحظوظين العائدين من الشام وهم على قيد الحياة سالمين غير غانمين، برغم مشقة اجتياز الصحراء وشح الماء الذي دفع عددًا منهم إلى الانتحار بإطلاق النار على رأسه يأسًا من الصبر على الظمأ الذي فتك بهم فتكًا. وسنرى ردود أفعالهم عندما لاحت لهم الأهرام من بُعد مؤذنة بقرب دخولهم القاهرة. وكيف استقبلوا فيما بعد نبأ هرب قائدهم سرًّا من مصر وعودته إلى فرنسا، تاركاً إياهم في عهدة الجنرال

كليبر *Kléber* الذي واصل التفاوض مع العثمانيين ووصل إلى اتفاق يضمن عودةً مُشرفةً لهم إلى أوطانهم، ثم لم يلبث أن اصطدم برفض بريطانيا الاعتراف بذلك الاتفاق. ثم نتعرف على ردود أفعال هؤلاء الجنود عند معرفة نبأ اغتيال قائدهم وتعيين الجنرال عبد الله مينو *Abdallah Menou* قائدًا عامًّا لجيش الشرق، ثم استسلامهم للبريطانيين وعودتهم إلى فرنسا على متون السفن الإنجليزية.

إنها رحلةٌ ممتعة عبر انطباعات "الآخر" وأفكاره ومشاعره وأخلاقه وانعكاسها على سلوكه، حيث ترك مؤلف هذا الكتاب تيري كرودي العنان لذكريات رجال الحملة في مصر تتدفق على ألسنة أصحابها لتعبر بأبلغ عبارة عن حياة الجنود الفرنسيين في مصر إبان الحملة. ولا ننسى الإشادة بدور كريستا هوك *Christa Hook* التي زودت النص بعدد كبير من اللوحات، فزادته توثيقًا ووضوحًا في مخيلة قارئه، كما أضفت عليه جمالًا وتشويقًا لا يُنكران.

(٥)

لم أخرج عن النهج الذي اصطنعته لنفسي عند التصدي للترجمة، فقد قمت بترجمة النص ترجمةً راعيتُ فيها أن تكون أمينةً شديدةَ الولاء للنصِّ الأصلي. محاولًا - في الوقت نفسه - الحفاظَ على أُسلوب المؤلف، والإبقاء - ما أمكن - على رُوح النص في طبعته الأصلية. مع تقديمه للقارئ العربي بأسلوب سلس يستسيغُه. والحفاظ على هذا التوازن - كما قد خبر المترجمون - ليس بالأمر الهيِّن.

كما علقت على النص، لافتًا نظر القارئ إلى مقارنة ما ورد في أوراق رجال الحملة بالمصادر الشرقية. ووضعت أرقام صفحات الأصل الإنجليزي على النص العربي تيسيرًا على من أراد مقابلة الترجمة العربية على النص الأصلي للتثبُّت.

وأخيرًا... فذاك هو مبلغ الجهد والطاقة. وهو غيضٌ من فيض، فلا زالت مئات الكُتب المهمة -المتعلقة بالحملة الفرنسية- جنبًا إلى جنب مع آلاف الوثائق بانتظار صلاح الأزمان وهمم الرجال لنقلها إلى العربية.

وآخر قولي أن الحمد لله رب العالمين.

د. أحمد العدوي

جناق قلعة (*Çanakkale*) من أرض تركيا

ظهيرة يوم الجمعة ٢١ من ذي الحجة من عام ١٤٣٧ للهجرة،

الموافق ٢٣ من سبتمبر/أيلول من عام ٢٠١٦ للميلاد.

شكر وتقدير

لا يسعني إلا أن أُعبر عن عظيم شكري وامتناني لديفيد هولينز *David Hollins*، وألفريد أومي *Alfred Umhey*، ومارتن لانكستر *Martin Lancaster*. والشكر موصول إلى هانز كارل ڤايس *Hans-Karl Weiss*، وجيرد هود *Gerd Hoad*، وباتريس كورسيل *Patrice Courcelle*، وإيف مارتن *Yves Martin*، ورومين باولِش *Romain Baulesh*، ونيكولاي بوجدانوفيتش *Nikolai Bogdanovic*، وكريستا هوك *Christa Hook*، وأعضاء منتدى كارنو *Carnot Forum*، وموظفي المكتبة الوطنية البريطانية *British Library*. وثَمَّ شكر خاص لستيفاني سوزو *Stéphanie Sauzeau*، وآشلي كان *Ashley Kane*، وسوجاثا إي *Sujatha Iye*.

تيري كرودي

ملاحظة عامة

تم تحويل جميع التواريخ الواردة في النص من التقويم الجمهوري -الذي أقرَّته الثورة الفرنسية- إلى التقويم الميلادي. وفيما يتعلق في الأماكن والبقاع الواردة في النص فقد اخترنا رسمها وفق الهجاء الأكثر شيوعًا. أما المصطلحات الفرنسية المعاصرة؛ فإن الفرنسيين دأبوا على تلقيب العرب بـ"البدو"، وسكان الولايات العثمانية بـ"التُّرك"، وهو اصطلاحُ عام كان ينسحب على جميع المسلمين من رعايا الدولة العثمانية. فلينتبه!

مُقدمة المؤلف

١

/ لم تفقد حملة نابليون *Napoleon* على الشرق الأوسط سحرها ولا شعبيتها على الرغم من فشلها عسكريًّا - في التحليل الأخير- ولا سيما في الجانب الذي يتعلق منها بمصر القديمة، تلك الحضارة التي سادت على الحضارات الأخرى. بيد أنها خسرت معركتها مع التاريخ.

إن تلك الحملة العسكرية التي دامت لثلاث سنوات كان لها تأثير بالغ العُمق على الثقافة الغربية، ولا سيما على أصعدة العلوم والفنون والتصميم وكذلك الأدب والسينما والسياحة على مدار القرنين التاليين. ومع ذلك فإن هذه الإنجازات لم تكن الهدف الأصلي للحملة. لقد سألت الحكومة الفرنسية نابليون بونابرت، ذلك القائد المنتشي بانتصاراته المدوية في إيطاليا (١٧٩٦-١٧٩٧)، عن جدوى الهجوم على بريطانيا، العدو الوحيد المتبقي لفرنسا الجمهورية. وإيمانًا منه أن هجومًا مباشرًا على السواحل الرئيسية لبريطانيا كان مهمةً أكبر من إمكانيات فرنسا -حيث لم تزل البحرية الملكية البريطانية مُهيمنةً على أعالي البحار- فقد تحول اهتمام بونابرت إلى مكان آخر!

بدا أن البديل هو تحرك فرنسا للسيطرة على شرق البحر المتوسط عن طريق الاستيلاء على مالطا أولًا، ثم على مصر، وذلك لتكوين مستعمرات جديدة لها، تحل محل تلك المستعمرات التي فقدتها في جزر الهند الغربية، ومن ثم قد يؤدي ذلك إلى فتح أسواق جديدة للصادرات الفرنسية، أمَّا الأهم: فكان توفير موطئ قدم لمهاجمة الهند، كبرى المستعمرات البريطانية.

جدول تحويل المقاييس الفرنسية قبل المترية *French pre-metric measurements*

١ خط *ligne*	=	= ٢,٢٢٦مم
١٢ خطًّا	= إصبع *pouce*	= ٢,٧٠٧سم
١٢ إصبعًا	= قدم *pied*	= ٣٢,٤٨٤سم
٦ أقدام	= قامة *toise*	= ١,٩٩٤م

رافق جيش نابليون، المكون من ٣٤,٠٠٠ جندي، عددٌ كبير من العلماء والفنانين أو النابهين *savants*، الذين أُنيط بهم إدخال التقنيات العلمية والزراعية الحديثة إلى المستعمرة الجديدة باعتبارها مهمة رئيسية. وأثناء اضطلاعهم بذلك، ذُهل هؤلاء العلماء من وفرة تلك النُّصب الضخمة والآثار المصرية القديمة، والتي أتموا دراستها وتسجيلها في موسوعتهم **وصف مصر** *Description de l'Égypte* (١٨٠٩-١٨٢٢)، وهو العمل المؤسس لعلم المصريات الحديث *Modern Egyptology*.

بيد أن الثمن الذي دفعوه لهذه الإنجازات العلمية كان باهظًا للغاية. فقد شهدت هذه السنوات الثلاث للحملة أحداثًا جسامًا، ومعاركَ حامية

الوطيس، كما شهدت ألوانًا من الحصار. فقد أطاح خلالها الجنود الفرنسيون بالمماليك، وهم السادة المحليون، ومن ثم فقد أُنيط بهم عبء الدفاع عن مستعمرتهم الجديدة، والتصدي للجهود المشتركة بين الدولة العثمانية وبريطانيا العظمى والرامية إلى إجلائهم عن مصر. أما فيما يخص الخبرات المكتسبة في ساحات المعارك، فقد كان على الفرنسيين تحمل تلك الظروف القاسية في مصر والأراضي المقدسة (١٧٩٩)، والمتمثلة في الحرارة الشديدة والعطش وتفشي الطاعون الدّبلي *bubonic plague* الذي اجتث الجميع دون تمييز، فلم يكترث للجنرالات أو الجنود أو العلماء أو المدنيين.



الحرس الشخصي لبونابرت، ٤٠٠ من قوات الأدلّاء *régiment des guides* كانوا في معية قائدهم في حملته على مصر.

٥ / مسرد تاريخي *Chronology* لأحداث الحملة الفرنسية على مصر

(الأحداث المتعلقة بحملة بونابرت على الشام وضعت بالخط المائل)

١٧ أكتوبر	١٧٩٧	معاهدة كامبو فورميو *Campo Formio* تُنهي حرب التحالف الأول.
٥ مارس	١٧٩٨	صدور أوامر الحكومة الفرنسية لبونابرت بالاستيلاء على مالطا ثم على مصر.
١٩ مايو		بونابرت يغادر بقواته ميناء تولون *Toulon*.
٢١ مايو		انضمام فرقة دي هيلير *D'Hilliers* إلى الأسطول في خليج جنوة *Genoa*.
٢٧ مايو		انضمام فرقة ڤابيوس *Vaubois* إلى الأسطول قبالة جزيرة كورسيكا *Corsica*.
٢٨ مايو		انضمام فرقة ديزيه *Desaix* إلى الأسطول من ميناء تشيڤيتافيكيا *Civitavecchia*.
١٠ يونيو		الأسطول الفرنسي يهاجم مالطا *Malta*.
١٢ يونيو		فرسان القديس يوحنا *Knights of St John* يطلبون الهدنة مع فرنسا.
١٩ يونيو		الأسطول يتوجه إلى مصر مخلفًا الجنرال ڤابيوس *Vaubois* في مالطا مع حامية تبلغ ٤٠٠٠ جندي.
٣٠ يونيو		الإبرار الفرنسي في مصر على ساحل خليج مربوط *Marabout Bay*.

١ يوليو		الاستيلاء على الإسكندرية.
١٣ يوليو		معركة شبراخيت الأولى ضد المماليك.
٢١ يوليو		معركة الأهرام (إمبابة) وهزيمة المماليك.
٢٤ يوليو		الفرنسيون يستولون على القاهرة.
١ - ٢ أغسطس		معركة أبي قير البحرية (النيل) وتدمير الأسطول الفرنسي، وانقطاع السبل بالجيش الفرنسي في مصر.
٢٥ أغسطس		الجنرال ديزيه *Desaix* يغادر القاهرة لإخضاع الصعيد.
٧ سبتمبر		معركة سدمنت (*Sediman*) والجنرال ديزيه يهزم المماليك.
٩ سبتمبر		الدولة العثمانية تعلن الحرب على فرنسا.
٢١-٢٢ أكتوبر		ثورة القاهرة الأولى.
٣ يناير	١٧٩٩	إعلان التحالف الروسي - العثماني ضد فرنسا.
٦ فبراير		بونابرت يشرع في غزو الشام.
٩ - ١٩ فبراير		حصار العريش.
٢٥ فبراير		استسلام غزة للقوات الفرنسية.
٧ مارس		القوات الفرنسية تقتحم يافا.
٨ مارس		ملاحظة أولى علامات تفشي وباء الطاعون في صفوف القوات الفرنسية.

١٦ مارس		سقوط حيفا في أيدي القوات الفرنسية.
١٨ مارس		الشروع في حصار عكا.
٣١ مارس		اجتياح الناصرة.
١ أبريل		وصول طلائع القوات الفرنسية إلى نهر الأردن.
٨ أبريل		معركة الناصرة (لوبيا *Lubya*).
١٦ أبريل		معركة جبل طابور، و كليبر *Kléber* يهزم الجيش العثماني.
٧ مايو		وصول الإمدادات العثمانية إلى عكا.
٨ - ١٠ مايو		فشل الهجوم الرئيسي على عكا.
٢٠ مايو		رفع الحصار عن عكا وعودة القوات الفرنسية إلى مصر.
١٤ يونيو		بونابرت يعود إلى القاهرة.
٢٥ يوليو		معركة أبي قير البرية، وهزيمة القوات العثمانية.
٢٣ أغسطس		بونابرت يغادر مصر، والجنرال كليبر يتولى القيادة العامة لجيش الشرق.
٢٨ يناير	١٨٠٠	كليبر يوقع معاهدة العريش مع الباب العالي للجلاء عن مصر.
١٨ مارس		البريطانيون يبلغون كليبر أنهم يرفضون تنفيذ بنود معاهدة العريش.
٢٠ مارس		هزيمة الجيش العثماني في عين شمس *Heliopolis*.

٢٧ مارس		الفرنسيون يقمعون ثورة القاهرة الثانية.
١٤ يونيو		اغتيال كليبر *Kléber* في القاهرة، وولاية الجنرال مينو *Menou* القيادة العامة لجيش الشرق.
٢٥ سبتمبر		استسلام الحامية الفرنسية في مالطا للبريطانيين.
٨ مارس	١٨٠١	الإبرار البريطاني في خليج أبي قير.
٢١ مارس		معركة كانوب *Canopus* وصد الهجوم الفرنسي على القوات البريطانية.
٢٥ مارس		الإبرار العثماني في خليج أبي قير والتقدم من الشام.
٢٦ أبريل		القوات الفرنسية تحت الحصار في الإسكندرية.
٩ مايو		انسحاب القوات الفرنسية من الرحمانية.
٢٧ يونيو		استسلام القوات الفرنسية في القاهرة بعد حصار الأيام الستة.
٣٠ أغسطس		الجنرال *Menou* يعلن استسلام قواته في الإسكندرية للبريطانيين.
١ أكتوبر		توقيع معاهدة السلام بين بريطانيا وفرنسا.
٩ أكتوبر		توقيع معاهدة السلام بين فرنسا والدولة العثمانية.

٦ ● / الحشد:

عند وصوله إلى ميناء تولون *Toulon*، كان جندي البحرية سانجل-فيريير *Sangle-Ferriere* يظن أنه قد انتقل إلى عالم آخر:

"... لقد انتقلت إلى عالم آخر، رأيتُ السفن الحربية والبحر للمرة الأولى، وقد امتلأ الميناء والمرفأ بالسفن والقوارب من كل نوع، وفاضت المدينة بالجنود والبحارة والناس من مختلف المهن والحرف، لقد قدِمُوا جميعًا للانضمام إلى الحملة، فكان الميناء خلية نحل لا تهدأ. لا ريب أنها ستكون حملة عظيمة كما يبدو، ومع ذلك فالغموض يحيط بها، بما في ذلك أسماء الأبطال الذين سوف يقودونها، ومدى الثقة في نجاحها. لقد جعل هذا الجميع يهرفون بما لا يعرفون. بيد أنني شعرت بالفخر عندما وجدت نفسي جنديًّا في ذلك الجيش الذي تكلل بأكاليل المجد في إيطاليا".

وبصرف النظر عن الفوج الثاني خفيف التسليح من جيش سامبر وميوز *l'armée de Sambre et Meuse* [(١)]. فقد كان قوام الحملة هم المتطوعون

---

(١) جيش سامبر-ميوز *l'armée de Sambre et Meus* أحد الجيوش التي تأسَّست في ظل الثورة الفرنسية. صدر أمر تأسيسه في التاسع والعشرين من يونيو عام ١٧٩٤ وذلك بالجمع بين ثلاث جيوش هي: جيش آردن *l'armée des Ardennes*، وميسرة جيش موسيل *l'armée de Moselle*، وميمنة جيش الشمال *l'armée du Nord*. وفي ٩ سبتمبر عام ١٩٩٧ ضُم جيش سامبر وميوز إلى جيش الراين وموسيل *Rhin-et-Moselle* تحت اسم جيش ألمانيا *l'armée d'Allemagne*. انظر: Abel Hugo, *France militaire. Histoire des armées Françaises de terre et de mer de 1792 à 1837*, Paris 1838, 7-11.(المترجم)

من المحاربين القُدامى، ولا سيما من حارب مع بونابرت في إيطاليا. كما كانت أصول أكثر المتطوعين المنضمين إلى الحملة تعود إلى جنوب فرنسا، حيث كانوا أكثر قدرة من غيرهم على التكيف سريعًا مع المناخ المصرى.

وقبل مغادرة الميناء، تم إخضاع كل جندي لفحص طبي صارم للتأكد من أنه: "في مُقتبل العمر، يقظ حاد البصر، وأسنانه في حالة جيدة، وتنفسه طبيعي، وشعر رأسه بحالة جيدة، رأسه مرتفعة، ووجهه يعكس رجولةً وحيويةً، واسع الصدر، عريض المنكبين، طويل الذراعين، قوي المعصمين واليدين مع عضلات بارزة، انسيابي الجسم، نحيف الخصر، ظهره مائل قليلًا إلى الوراء، ساقاه مستقيمتان خاليتان من الغضاريف من الأفخاذ إلى الأقدام. أما هؤلاء الذين ظهرت عليهم أعراض خطيرة جرَّاء الإصابة بالأمراض التناسلية فقد أُرسلوا من فورهم إلى المستشفيات في تولون ومارسيليا *Marseilles*".

وقد لاقى سلاح الفرسان *cavalry* صعوبات كبيرة في الانضمام إلى الحملة؛ حيث لاحظ أحد الضباط بالفوج الرابع عشر/فرسان بعض المشاكل التي واجهها فوجه أثناء الاستعدادات للإبحار:

> "كان امتلاك السَّرج هو الشرط الأول في قائمة شروط انضمام الفارس إلى سلاح الفرسان، يليه السلاح ذي الحالة الجيدة، بالإضافة إلى جميع لوازم الفارس من معطف جديد، وصَدريَّة، مع سروال وزوج من الأحذية، وقد اشتريناها كلها من أموالنا. لقد تكلف تنفيذ الفرسان لاشتراطات الانضمام إلى السلاح نحو ٥٠ ليفر *Livre* .... [الجنرال /

مُراد Murat] اختار تلك الخيول بعناية من حيث العمر، وقوة البنية بحيث يتيح لها ذلك البقاء حية خلال رحلة بحرية طويلة..... وقد صعد مئة جواد فحسب من الجياد المخصصة للحملة على متن السفن، أما البقية فقد تم تخصيصها لفرق الفرسان المختلفة المرابطة في جمهورية الألب Cisalpine Republic"(١).

وبدا أن زيارة ذلك الفارس للسفن المرابطة في جنوة Genoa قد جعلته أكثر قلقًا:

"ثَمَّ عددٌ قليل للغاية من السفن قد جهزت لحمل الخيول، ومن ثم فنحن مجبرون على الحد من عدد الخيول التي سيستخدمها الموظفون والفرسان ورجال المدفعية. فأكبر حاصل بتلك السفن لا يمكنه أن يستوعب أكثر من اثني عشر إلى ستة عشر جوادًا على أقصى تقدير، بيد أنه ينبغي علينا أن نحمل معنا جميع مستلزمات الخيل من دون شك، على أمل أن نجد ما يكفي من الخيول في البلد الذي سنقصده".

---

(١) جمهورية الألب Cisalpine Republic: إحدى الجمهوريتين اللتين أسسهما نابليون بونابرت بعد انتصاره في معركة لودي Lodi في مايو ١٧٩٦، وضمت الأراضي الواقعة إلى الشمال من نهر بو Po River. (المترجم).



نابليون بونابرت *Napoleon Bonaparte* (١٧٦٩-١٨٢٢) كان يتمتع بشعبية هائلة بين الجنود والعلماء في بداية الحملة، ولا سيما بعد حملته الإيطالية المظفرة، وسرعان ما أخذت تلك الشعبية في التآكل بعد حملته المنكوبة على الشام.

وقد سُمح لعدد محدود من النساء بالانضمام إلى الحملة على نحو رسمي بمعدل: ثلاث نساء خُصِّصن لهيئة الأركان، وامرأة واحدة لطاقم كل فرقة، وأربع لخدمة الجنود بكل كتيبة من المشاة أو الفرسان، وامرأة واحدة لكل سرية من فرسان المدفعية أو الاستطلاع، وعشر لكل مستشفى ميداني، وأربع للخدمة في ورش حياكة الزي الرسمي للجيش.

وكان على كل امرأة منهن أن تحمل معها شهادةً من المجلس الأعلى تنصُّ على وظيفتها، كما عليها اجتياز الفحص الطبي. وقد نتج عن هذا وجود نحو ٣٤٠ امرأة عملن ممونات *cantinières* أو غسَّالات في خدمة الجيش. وقد تم تعزيز هذا العدد من قبل زوجات الجنود اللائي تم تهريبهن على متُون سفن الحملة على نحو غير شرعي.

وقد تم تغطية تكاليف الحملة إلى حد كبير من المال المسلوب من سويسرا، بيد أنه وكما أوضح دوجيرو *Doguereau*: "فقد ساعد المضاربون على إيجاد الممولين لتغطية تكاليف الحملة التي سيشارك فيها عدد كبير من الناس، وتولوا إقناعهم أن تلك الحملة ستعمل على تعزيز ثرواتهم. وعلى الرغم من أن عدداً قليلاً من الناس عرف الوجهة الحقيقية للحملة، فإن لدي سبب يحملني على الاعتقاد بأن هؤلاء الممولين أنفسهم كانوا يجهلون وجهة الجيش الحقيقية، وظلوا كذلك لفترة طويلة".

وقد غُلِّفت الحملة بغطاء كثيف من السرية اكتنف الجميع. ولم يجادل في هذا فرانسوا بيرنويه *François Bernoyer* كبير الخياطين بالحملة:

> "لقد دار الكثير من اللغط حول ما إذا كانت وجهتنا هي البرتغال أو مصر، ولكن الغالبية العظمى ظنوا أننا ذاهبون إلى صقلية أو مالطا، حتى النابهين *savants* من العلماء والفنانين الذين انضموا إلى الحملة، لم يحيروا جواباً فيما يتعلق بالوجهة. وقد قيل إن الجنرال بونابرت طلب خدماتهم، وتعهد لهم أن وظائفهم الحالية ستحفظ لهم أثناء غيابهم، وقد وقع الاختيارعليهم أو تم تعيينهم مباشرة عن طريق الجنرال/مهندس كفاريللي دو فولجا *Caffarelli du Falga*، والكيميائي بيرتوليه *Berthollet*".

وعلى كل حال فإن مستعمرة جديدة كانت لتتطلب أيضاً جهود عددٍ من المقاولين والإداريين. ففي الطريق إلى تولون، لاحظ متعهد زي الجيش جراندچان *Grandjean* ملاحظةً ثاقبةً:



الأميرال بول بروي *Paul Brueys* (١٧٥٣-١٧٩٨). قاد -على نحو يدعو للإعجاب- الأسطول الفرنسي المكون من: ٥٥ سفينة حربية و١٣٠ سفينة تجارية و ١٥٠ سفينة نقل تُقل على متنها ١٠,٠٠٠ بحار بالإضافة إلى ٣٤,٠٠٠ جندي. خاض بروي معركةً عنيفة ضد الأسطول البريطاني في خليج أبي قير، وقد انشطر جسده تقريبًا إلى نصفين جراء إصابةٍ مباشرة بقذيفة مدفعية، قبل أن تنفجر سفينة القيادة المشرق *Orient*.

"كانت لدينا شكوك بأن الحملة -التي يجري إعدادها- ستتجه إلى مصر. إذ كان اصطحاب الحملة لجميع المؤلفات الأدبية التي تناولت هذا البلد تقريبًا هو ما أكد هذه الفكرة.... لقد قيل إن المسافرين قد استولوا على كل شيء عثروا عليه يخص هذا القُطر". / كما لم يكن العلماء كذلك متأكدين من أن مصر هي قبلة الحملة: كتب أحد العلماء قائلًا: "على الرغم من كل الاحتمالات القائمة حول وجهة الحملة، فلا أحد منا بإمكانه الجزم بالوجهة الحقيقية لها".

٨

ومن ناحية أخرى فقد كان لدى قائد الكتيبة موران *Morand* من الفوج الثامن والثمانين، نظريته الخاصة:

"ليس ثم حدود للتخمين، لقد راهنت على احتمالٍ ما، بعدما رأيت الطريقة التي اتبعها الجنرال ديزيه *Desaix* في البحث في المكتبات عن جميع الكتب والخرائط المتعلقة بمصر وسوريا وبلاد فارس... ومن ثم فإن معظم القرائن المنطقية حول الوجهة تُظهر أنه لا يؤمن باستهداف إنجلترا في الوقت الراهن. لقد هدف هذا المشروع إلى نقل الجيش إلى الهند عبر آسيا والبحر الأحمر، ولا سيما إذا استطعنا توفير عدد كاف من سفن النقل من الموانئ المجاورة لسوريا ومصر".

- **دوار البحر:**

تحدث الملازم لاڤال *Laval* قائلًا: "استعرض بونابرت الضباط وضباط الصف *sous-officiers* من القوات في تولون قبيل المغادرة،

فاصطففنا حوله في دائرة، نخاطبنا قائلًا إنه ذاهب على رأسنا إلى بلد ما! وقد تعهد لنا بأنه لن يعود جندي واحد إلى فرنسا دون أن يكون معه ما يكفي لشراء خمسة أو ستة هكتارات من الأراضي. ثم أردف قائلًا: "أنتم تعرفون أنني لم أخدعكم قط عندما قُدتكم في إيطاليا، ويمكنكم الاعتماد على كلمتي. على إثر هذا صعدت القوات على متون السفن دون أن ينبس أحدٌ ببنت شفة".

وعندما أصبح الأسطول جاهزًا للإبحار، كان فرانسوا بيرنويه *François Bernoyer* مدعوًّا للغداء، وهي المأدبة التي - ربما - كانت الأقصر في حياته:

> "... لم يكن هناك من هو أسرع منا في تناول الطعام على الطاولة، فقد انطلق المدفع، وكان إشارة الانطلاق للأسطول.... كان ثمة قارب في الميناء على أُهبة الاستعداد لنقلي إلى السفينة باتريوت *Patriote*. وعند وصولي إلى هناك وجدت الطاقم منهمكًا في رفع المرساة، وبدا أنهم كانوا ينتظرونني فحسب، إذ إن جميع السفن كانت قد رفعت الأشرعة وأبحرت قبلنا، وتلقينا التحية العسكرية وهي طلقة مدفعية أُطلقت من حصن المدينة، وكذلك من بطاريات المدفعية بحصن آماجلو *Amalgue*. وكانت جميع القوارب ترفع الراية الوطنية، وقد احتلت مساحة هائلة على سطح البحر، بحيث يمكن للمرء أن يرى جميع السفن والقوارب المبحرة من على سطح السفينة. والحق أنني لم أرَ في السابق منظرًا أجمل - على صفحة البحر المتوسط - من هذا المنظر، ها هي مدن ضخمة مهيبة تطفو على سطح البحر. وعلى متن كل سفينة،

عزفت الفرق الموسيقية تلك الإيقاعات المحببة للجنود، وهكذا فإن معظم شهود هذا المجد، هم من سيقودونا إلى النصر".

شهد مويو *Miot* مشهدًا أكثر حزنًا: "... عند مغادرة الأميرال [يعني بول بروي *Paul Brueys*]، قدِمت زوجته على متن قارب لوداعه. وقد مكثت على متن السفينة حتى اللحظة التي رُفعت فيها المرسَاة. وأخذت تَذْرف الدموع حُزنًا على الفِراق، وقد احتضن الأميرال ابنه بحنان، ثم ردَّه إلى زوجته قائلًا: "وداعًا بُني، ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أضمك فيها إلى صَدري". لقد كان وداعًا حزينًا، ونبوءة مشؤومة، من شأنها أن تتحقق!

"وفي ميناء تشيڤيتافيكيا *Civitavecchia* بالقرب من روما، كانت فرقة ديزيه *Desaix* - التي خدم فيها موران *Morand* - قد نفد صبرها:

"كان الحماس العظيم يحيط بي، على الرغم من الغموض الذي يكتنف وجهة حملتنا، ولكن التلهف / للتغيير عبر هذا المشروع الاستثنائي منحنا روحًا معنوية عالية، ففكرة أننا ذاهبون لقتال إنجلترا، وذلك بغض النظر عن المكان، كانت كافية في حد ذاتها لرفع معنوياتنا. كما كانت الأخبار التي جاءت تترى تباعًا من جنوة وتولون مبهجة حقًّا، وقد ألهمت الجند، فمعظمهم لم يرَ البحر قبل ذلك قط، وقد وجدوا أنفسهم - فجأة - مُكدسين في سفن غير مسلحة، وقد تركت قيادها لهوى الرياح وعبث الأمواج، فامتزج في أنفسهم الخوف من مخاطر القتال غير المتكافئ مع الشعور بالحسرة على ترك إيطاليا الرائعة، والذهاب بعيدًا عن

٩

الوطن إلى تلك الأرض الموعودة، لقد تخيل كل واحد منهم أنه يري فيضًا من الدموع يُذرف من عين أمٍّ أو حبيبة أو صديق مشفقٍ علينا من المخاطر التي تتهددنا. وأمام هذه الحسرة وهذه المخاوف أقول: أفسحوا المجال إلى محبة المجد، وإلى كراهية إنجلترا، وإلى ضرورة الانتقام من ذلك الخصم، وإلى السعادة الناجمة عن الانطلاق في أجواء تلك المغامرات الرومانسية".



واجهت الخيالة مشكلة شحن خيولهم على ظهور السفن في ميناء تولون. وقد أعاد ضابط، من السرية ٦٠٠ بالفوج الرابع عشر/فرسان في جنوة، ذكر صعوبات مماثلة بقوله: "بدأنا هذا الصباح بشحن الجياد، لقد جرى ذلك بسرعة كبيرة، بيد أن المساحة المخصصة لتلك الجياد كانت محدودة جدًا، بحيث إن القوات اضطرت إلى ترك معظم الخيول التي تم إحضارها إلى هنا. فقد تم إركاب ٢٠ ضابطًا وسبعة عشر فارسًا بأمتعتهم على متن القوارب المخصصة للنقل.

وفقد معظم الجنود حماسهم المبدئي ذاك بمجرد وصولهم إلى البحر المفتوح، بما في ذلك العريف كايو *Cailleux* من الفوج الثاني:

"نصبنا الأشرعة في وجه الريح في تمام الساعة الثالثة عصرًا يومَ التاسع عشر من مايو، وكان الطقس معتدلًا على الرغم من الرياح الشمالية الخفيفة. بيد أن الموج كان عاليًا، ومن ثم تلاعب بسفينتنا على نحو مستمر. ويبدو أن هذا قد سبب شعورًا بغيضًا، أخذ في التزايد مع مرور الوقت، لا سيما لأولئك الذين لم يكن لديهم خبرة بركوب البحر من قبل.... فسرعان ما أصبحنا شاحبين ومنهكين وعانينا كثيرًا. وإجمالًا يمكنني القول أننا لم نكن بحاجة إلى الكَمان لحملنا على الرقص، ولا إلى الجرَّاح لحملنا على التقيؤ.... لقد كان ذلك ما يطلق عليه البحارة "دفع الجزية للبحر". هبط الليل في نهاية المطاف، وهدأ البحر لعدة أيام، وتعافى الرجال.... ومضينا قدمًا في طريقنا. ولكن في ليلة ٢٢-٢٣ مايو هبَّت علينا عاصفةُ شديدة، بفعل الرياح الشمالية القوية، وبلغت من القوة أن أُجبرنا على طي جميع الأشرعة، والاستمرار في طريقنا بشراع صارى السفينة الخلفى فحسب. كان البحر مروعًا حقًّا، وكان صوت زمجرة الرياح العارمة في الصواري والحبال يحاكي / نخير الثور. كما كان ضياء البرق مبهرًا لنا، وقد جرفت الأمواج كل شيء على سطح السفينة، وفي كل لحظة كنا نعتقد أنها ستبتلعنا في جوفها، ولحسن الحظ فإن تلك العاصفة لم تدم طويلًا".

١٠

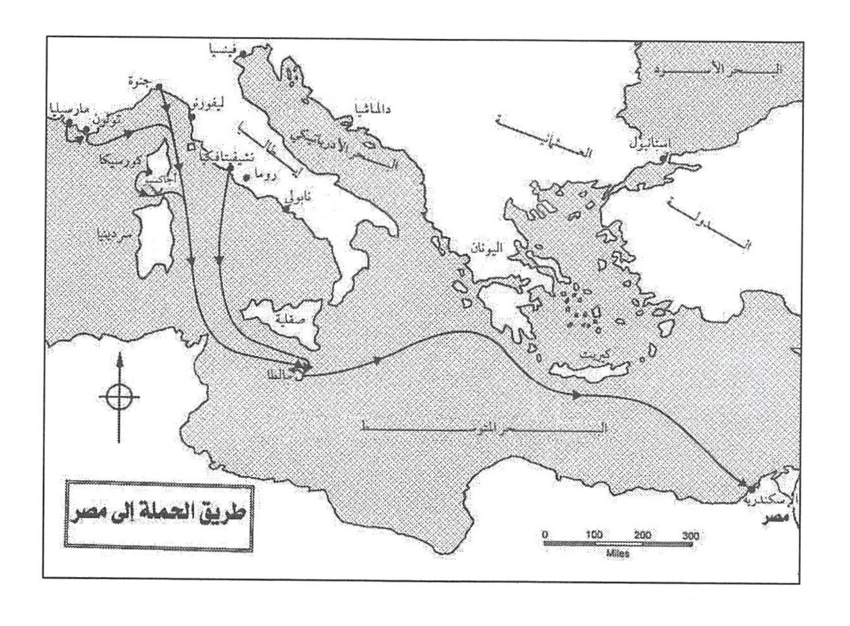
وبعد أسبوع من هذا التاريخ، لم يكن موران *Morand* ومعه الفوج الثامن والثمانون بأكمله قد غادروا إيطاليا بعد:

"في السادس والعشرين من مايو، بينما مالت الشمس للمغيب، ملونةً مياه البحر بأشعتها الأخيرة، تداخلت أصوات انطلاق مائة مدفع، مع صرخات عدد هائل من الناس الذين تزاحموا على طول أرصفة ميناء تشيفيتافيكيا *Civitavecchia*، لتوديع الجنود والبحارة الذين اصطفوا على امتداد طوابق السفن عند الصاري الخلفي، وقد غادرت سفينة القيادة الفرقاطة *Courageuse* - وعلى متنها الجنرال ديزيه *Desaix*- الميناء عبر القناة الشرقية، تلاها نحو خمسين قاربًا، وقد رفعوا الأشرعة كاملة بمجرد اجتيازهم حاجز الأمواج، وأسلم الجميع قيادهم للريح. كما أبحرت العديد من سفن النقل عبر القناة الشرقية تحت ضوء القمر، الذي ارتفع نحو الساعة التاسعة مساء. واستمر الأسطول الصغير في الإبحار جنوبًا على رياح منعشةٍ وبحر لطيف.

في تلك اللحظة شعرت بالأعراض الأولى لهذا المرض القاسي، أو الثمن الباهظ الذي ينبغي على المرء أن يدفعه للبحر، والتي يُعفي البحر منها قليلًا من الناس.... شعرتُ فجأةً بآلام حادةٍ في الأمعاء، مصحوبةً بتشنجات قوية في المعدة، وقد أيقظتني تلك الآلام من أحلام اليقظة. فتملكني القيء الفظيع، وفقدت كل حواسي. حُملت لسريري بعد تعرضي لهذه الأعراض بلحظات، وقد جلب لي النوم بعض الراحة،

١١

بيد أن تلك الأعراض لم تلبث أن عاودتني بعد استيقاظي، فعاد دوار البحر أشد مما كان. وعبثًا / أردت أن آكل، فتناولت بعض المرق والأرز والشيكولاتة، بيد أن معدتي أبت كل أنواع الطعام. وعانيتُ كثيرًا جراء التقلصات الفظيعة وأصبح البحر أغلظ مما كان، وازدادت معاناتي مع تمايل السفينة يمنة ويسرة. وفي ظل هذه الظروف التي لا يوجد لها علاج ناجع، أردت أن أموت عشرين مرةً على الأقل، وتمنيت أن أنام فلا أستيقظ، وأن أذهب سُدى إلى غياهب النسيان.... وفي اليوم الثالث، انخفضت الرياح وتعافيتُ".



• **الحياة على ظهور السفن:**

لم يعتد معظم الجنود والمدنيين - الذين أضحوا في عرض البحر- الحياة على ظهور السفن من قبل، فكان تكيُّفهم السريع مع الأماكن الضيقة أمرًا مزعجًا للغاية. وأشار جراندچـان *Grandjean* - الذي أبحر على متن سفينة القيادة- إلى تلك الظروف الصحية السيئة، مع انتشار دوار البحر *seasickness* بين الجميع قائلًا:

"كنا مرضى على نحو مروعٍ على متن سفينة المشرق *Orient*، لذلك أقول: إننا حُشرنا حشرًا كالأنشُوجة في البرميل. تخيل، إن كنت مستطيعًا ذلك، سفينةً تحمل على متنها ألفي جندي، وألفًا من أفراد طاقم البحرية، وأكثر من مائتين آخرين بينهم جنرالات وإداريين / وأعضاء من جمعية الفنون *commission des arts*، كما كانت تحمل على متنها كذلك ١٣٢ مدفعًا ثقيلًا، مع كميات لا حصر لها من الذخائر من جميع الأنواع، بالإضافة إلى المؤن وقطعان من الماشية التي من المفترض أن تكفي لإطعام الجميع لمدة شهرين، وأخيرًا المعدات والمتعلقات الشخصية بكل فرد على السفينة. و على الرغم من كل هذا ظلت السفينة "المشرق"(١) الأسرع بين قطع الأسطول!

"... صديقي الذي صُنِّف من بين كبار الضباط كان يأكل على مائدة جنرالات الجيش ونوابهم من كبار الضباط.

١٢

---

(١) أطلق عليها الجبرتي اسم "نصف الدنيا"!، انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، ٢: ٢٠١. (المترجم).

أما أنا - بحيث لا رتبة ولا منصب رفيع يؤهلني لهذا- فقد كنت أتناول طعامي على مناضد الدرجة الثانية، حيث كان الجميع هناك من صغار الضباط والمساعدين والإداريين، وكذلك بعض أعضاء لجنة الفنون. لقد شملت هذه المائدة ما لا يقل عن مائة وخمسين شخصًا. ونظرًا لوجود مثل هذا العدد، فقد كانت الخدمة مُقتصدةً جدًّا".

أبحر فرانسوا بيرنويه *François Bernoyer* على متن الفرقاطة باتريوت *Patriote*، وقام بزيارة لأصدقائه على متن المشرق *Orient* باستخدام أحد القوارب:

"خطونا عدة خطوات على متن تلك القلعة العائمة، حيث عاش على متنها ثلاثةُ آلاف شخص، قبل أن يأذن لنا سادتُها بالنزول إلى جوفها حيث تناولنا العشاء. كانت المنضدة مشحونة جدًّا، وكنا قريبين جدًّا من بعضنا البعض، وبالكاد كنا نستطيع أن نرفع أيدينا إلى أفواهنا. وقد تحرَّج أصدقاؤنا من هذا الموقف غير المريح، قائلين إن القائد العام مع طاقمه قد احتلوا نصف السفينة.... بعد العشاء سِرنا برفقتهم نتجول في أنحاء الأرباع المخصصة لبونابرت على متن السفينة. لقد تم تنسيقها على نحو مناسب، مع أناقةٍ واضحةٍ وذوق سليم. بيد أنه لا شيء كان أكثر إثارة للدهشة والإبهار من غرفة استقباله الرائعة المسماة *salon de compagnie*، لقد بدت وقد صُمّمت وزُينت لشخص ملكي ممن ولدوا في الدِّعةِ والجهل، بدلًا من جنرال جمهوري يسعى لمجد وطنه!".

كما شكَا جراندچـان *Grandjean* من ظروف النوم الصعبة في عنابر السفن:

> "في الليل، ونحن نيام على تلك الأراجيح - المدعوة بالأسِرَّة- في الصفوف الثلاثة الأخيرة. تدلى أحدهم فجأةً من سقف العنبر، بينما قُذف الآخر على الطاولة، أما الثالث فقد وجد نفسه تحتها! لقد كان الجميع قريبون جدًّا من بعضهم البعض، فحتى عندما يكون البحر هادئًا، فإن أدنى حركة للسفينة كانت كافيةً لترمي بك إلى سرير جارك الذي من شأنه أن يسقط على سرير جاره وهلم جرًّا حتى النائم على آخر سرير كان ليجد نفسه مقذوفًا خارج العنبر إن كان الباب مفتوحاً".

وبغض النظر عن رُتبهم، فقد تلقَّى رجال الجنرال ديزيه *Desaix* ثلاث وجبات في اليوم بينما كانوا في عرض البحر. فقد تم إعداد قائمة للطعام كانت تُعدَّل كل عشرة أيام، بحيث يحصل كل شخص على ٥٧٦ جرامًا (نحو ١٨ أوقية) من الكعك، ٧٠ *Centiliters* (أي نحو ٣/٤ لتر) من النبيذ يوميًّا، مع قطعة من لحم الخنزير المقدد، أو لحم البقر المقدد. واستكمل النظام الغذائي بسمك القُد *cod* مع الجبن والأرز والخضروات، والتي تم حفظها في خليط من الزيت والخل.

نظريًّا فإن هذا النظام الغذائي كان مُتوازنًا، ولكن موران *Morand* كشف عن أثرِ سوء التخزين على جودة المواد الغذائية:

> "تخيل نفسك في مقصورةٍ ضيقةٍ مثيرة للاشمئزاز، وبصحبة عشرين رجلًا بين سكّيرٍ ومريضٍ. وتتطلع إلى

الأواني الفخارية القذرة التي لا تخلو من أثر شحوم اللحوم الفاسدة أو تلك المقددة، مع رائحة كريهة من أثر ترسبات مَرق الشحوم القديمة، مع قتال لا يهدأ من جانب السوس على الخضروات، بالإضافة إلى تلك المياه العكرة كريهة الرائحة، وذلك البيض الفاسد، والكعك المغبر الذي يأتيك في بعض الأحيان ممتلئًا بالسوس".

قائمة طعام البحارة والجنود على متن سفن الأسطول الفرنسي المتجه إلى مصر (لعشرة أيام)

اليوم	الإفطار (السابعة صباحًا)	الغداء (الحادية عشر ظهراً)	العشاء (الخامسة مساءً)
الأول	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٩٢جم لحم الخنزير المقدد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من الخضروات
الثاني	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ٢٥٦جم لحم البقر المقدد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ٦٤جم من الأرز
الثالث	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٩٢جم لحم الخنزير المقدد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من الخضروات
الرابع	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من الجبن	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ٦٤جم من الأرز
الخامس	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٩٢جم لحم الخنزير المقدد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من الخضروات

اليوم	الإفطار (السابعة صباحًا)	الغداء (الحادية عشر ظهرًا)	العشاء (الخامسة مساءً)
السادس	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ٢٥٦جم لحم البقر المقدد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ٦٤جم من الأرز
السابع	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٩٢جم لحم الخنزير المقدد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من الخضروات
الثامن	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من الخضروات	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ٦٤جم من الأرز
التاسع	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٩٢جم لحم الخنزير المقدد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من الخضروات
العاشر	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ١٢٨جم من سمك القُد	١٩٢ جم من الكعك/ ٢٣٠مم نبيذ/ ٦٤جم من الأرز

١٣ / كان الهاجس الأكبر بين جنود الحملة هو مواجهة أسطول نيلسون *Nelson*، الذي كان من المعروف لهم أن البحر المتوسط هو مسرح عملياته[١]. فقد عبَّر الفنان دينون *Denon* -الذي أبحر من مارسيليا إلى تولون- عن ارتياعه من خلال سماعه تنبيهًا للجنود والبحارة بالإسراع إلى حمل السلاح:

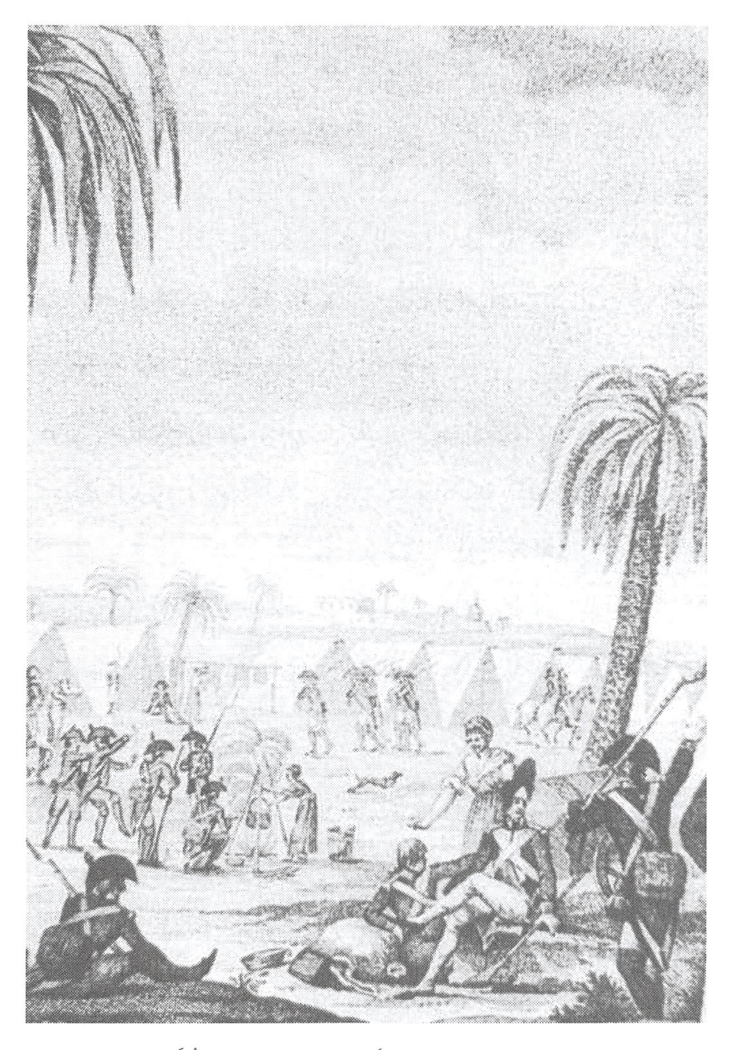
"أصدر القائد أوامره بالإسراع إلى حمل السلاح على الفور. "هلموا إلى السلاح" يا له من تعبير رهيب! ولا سيما

(١) انظر بعضًا من هذه المخاوف وتأثيرها على جنود الحملة في: جوزيف ماري مواريه، مذكرات ضابط بالحملة الفرنسية، ترجمة كاميليا صبحي، (القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠)، ٢٢. (المترجم).

بالنسبة لأولئك الذين لم يركبوا البحر من قبل. يمكنه أن يوحي لك بالصمت، أو بالإرهاب، أو بتلك الأعمال التحضيرية للمذابح وعواقبها، وهو في الأخير أكثر قتلًا من المجزرة نفسها. الجميع هنا متحدون من أجل هدف واحد: مناورة السفينة وإدارة النيران، وهذا هو الأمر الوحيد المثير للارتباك في تلك الأثناء؛ لذا فطاقم السفينة هم الغوث في مثل تلك الأحوال.

ومع ذلك، فإن تشالبران *Chalbrand* يتحدث عن أن الجنود كانوا "يختبرون فتحات المدافع ثلاث مرات على مدار اليوم" في سبيل تحسين حالة مدفعية السفينة، وكان العريف كايو *Cailleux* - المصاب بالرعب- أكثر قلقًا من سوء إدارة السفن الفرنسية:

"ثمة أزمة أخرى وقعت في ليلة ٢٦-٢٧ مايو، في الصباح. فقد كنا نبحر جنبًا إلى جنب مع السفينة تونان *Tonnant*، التي كانت إلى يسارنا، ثم فجأة بدت وكأنها تستهدفنا مباشرة؛ صَلَّينا كي تنحرف بعيدًا عنَّا لنتجنب اصطدامًا مروعًا بها، ولكن هيهات! ضربتنا تلك السفينة الجامحة مباشرة، فحطمت مقدمة سفينتنا، ومحت تقريبًا آثار الصاري الأمامي. ولحسن حظنا كانت الرياح خفيفة، وإلا لواجهنا خطرًا كبيرًا، وهو أن تصير سفينتنا حطامًا، ولم يُنجِنا إلا التعلُّق بالحبال، لقد تركت هذه الواقعة في أنفسنا رعبًا لا مثيل له".



الجنود الفرنسيون يأخذون قسطًا من الراحة قبل أن يُوزَّع عليهم الحساء. ويمكن رؤية القصعة الميدانية *gamelle* في مقدمة الصورة قريبة من قدم الجندي الجالس إلى اليسار.

على الرغم من اختلاف الظروف بين قاطني تلك المدن العائمة، فإن كثيرين منهم قد راق لهم الإبحار في البحر المتوسط، فقد لاحظ

جراندچـان *Grandjean* في فجر أحد الأيام: "كان البحر هادئًا تمامًا، ومن ثم تم تجميع الأسطول بأكمله، وامتد على شكل فرعين كبيرين: السُّفن الحربية عند الرأس والفرقاطات والسفن المسلحة الأخرى على الجناحين والمؤخرة، في حين سارت فرقاطةٌ في الوسط. نحو ثلاثمائة سفينة في أفضل حالاتها، وهي ترفع الأشرعة البيضاء الرائعة، فعرضت في شروق الشمس أروع مشهدٍ لا يمكن للخيال نفسه أن يجسده!".

وعلى الرغم من أن وجهتهم بقيت طي الكتمان، فقد رصد لاڤال *Laval* ذلك الشعور بالرضا البادي على الجميع:" لقد كان الجميع راضياً، ومن سفينة إلى أخرى كنت تستمع بوضوح إلى هتاف الجنود "فلتحيا الجمهورية" "*Vive la Republique!*". كما لم يترك التفاهم التام بين طاقم الخدمة والجنود والبحارة أي مجالٍ للشك في حماس الجيش المتقد".

وهنا يتفق معه ميو *Miot*:

> "كنا نسمع أصوات عزف فرق الموسيقى العسكرية يأتي من كل حدب وصوب، وكان لها تأثير في النفوس، لا أجد في نفسي القدرة على وصفه".

تواصَل روتين الحياة اليومية على متون السفن، ورسى الأسطول جنوب جزيرة كورسيكا *Corsica*. "ساد الهدوء ذلك اليوم، واستغله قائد سفينتنا في تنظيف السفينة وتنفيذ إصلاحات طفيفة بيد أنها كانت ضرورية". وفي المساء، ووفقًا لفرانسوا بيرنويه *François Bernoyer*:"كانت صنوف الملاهي أكثر تنوعًا: فثم الرقص، والاستعراض بالأسلحة، والموسيقى، وفوق كل شيء تلك الأسمار التي كان الجنود يتبادلونها،

حيث كان الجميع - ودون تمييز- يدلي بدلوه، وقد انمهكنا أكثر الليل في هذا".

وعرض ڤيڤان دينون *Vivant Denon* وجهة نظر مختلفة:

"خلال الهدوء، كان الكسل والخمول هو الغالب على كل إحساس آخر على متن السفينة. وهو ما تسبب في مجموعة متنوعة من المشكلات التي وقعت بين الجنود والبحارة حول الفائض والمُستغنى عنه في مخازن السَّفينة، ومن ثم فإن المشاجرات التي اندلعت بينهم للحصول عليها كانت نتيجةً طبيعيةً. فالجنود، بطبيعة الحال، يريدون حصةً إضافيةً من التموين ويشتكون. بينما رغب أولئك الجشِعُون / في بيعها، أو الاقتراع فيما بينهم عليها. وتلبيةً لشهوتهم فقد قامروا بها مع هؤلاء الأشخاص الذين كان لديهم ميلٌ فطري للقمار. لعبوا وقامروا، وفقد بعضهم خلال أقل من ربع الساعة أكثر مما يستطيع دفعه خلال حياته كلها. وبعد أن ذهبت أموالهم رهنوا ساعاتهم. وسرعان ما شاهدت ستة أو ربما ثمانية كادوا يفضون إلى الموت حسرة وندمًا. وأخيرًا عند حلول الظلام صدرت الأوامر بوضع حدٍّ لهذه الألعاب المميتة.

١٤

كما جذب الكمانُ البائس مع المطرب الأسوأ انتباه جمهور لا بأس به على سطح السفينة. وعلى مقربة منهم كان القُصّاص يقصون أساطير جذبت انتباه حشدٍ آخر من الجنود، الذين كانوا على استعداد لمهاجمة أي شخص يقْدِم على مقاطعة سرد تلك المعجزات والمغامرات الباسلة والرائعة

لبطلهم، الذي كان دائمًا جنديًّا عاديًّا مثلهم. وبما أن ملابساتها نُسجت على نحو يناسب الجميع، فمن المحتمل أن هذا هو سبب فضولِ عدد كبير منهم".

على متن السفينة باتريوت *Patriote*، اكتشف بيرنويه *Bernoyer* طريقةً أخرى لكسر الملل عبر تلك الطقوس البحرية القديمة والعجيبة:

"... وفقًا لتقاليد البحرية، فإنه ينبغي على الركاب كفالة طاقم البحارة والإنفاق عليهم خلال الأسفار الطويلة.... ولذلك عمل البحارة بجهد - طوال الليل- كي يرفعوا برميلًا مليئًا بالماء إلى الصاري الأمامي، مع تمويهه جيدًا ليكون مفاجأة لنا في اليوم التالي.

... وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي أعلنت طلقات المدفعية عن مراسم ما ستجري لاحقًا، ثم أرسل طاقم البحارة مبعوثًا لنا ليبلغنا أن الأب الاستوائي *le Père Tropique* قادم، وأننا يجب أن نصعد على سطح السفينة لتقديم فروض التحية له. وعلى سطح السفينة، بدأ موكب الأب الاستوائي في التحرك أمامنا، فرقع الحُوذي - الذي قاد الموكب- سَوْطه على نحو يوحي بالخبرة. ثم أعقبته بعض آلهة الإغريق والوحوش شبه العارية التي صبغت أجسادها بالأصباغ السوداء والحمراء. ثم تبعهم الكهنة يجرّون أذيال الأردية الفضفاضة. ثم أخيرًا، ظهر الأب الاستوائي يحيط به كل رجال بلاطه. كان مشهدًا مثيرًا للسخرية ومن الصعب

وصفه. وبعد أن تجول في السفينة على وقع الموسيقى الصاخبة، جلس الأب الاستوائي على عرش كبير أمام منضدة قد توشّحت بغطاءٍ أسود، ثم وضع عليها الإنجيل العظيم. لقد تظاهر ذلك الشخص الذي شخّص دور الأب الاستوائي بأنه رجل عجوز / ذو لحية بيضاء تدلّت إلى خصره. ١٥
وقد ارتدى سترة بقلنسوة مخططة ومصنوعة من جلد الغنم، ووضع على رأسه تاجًا بحواف زينتها القرون. أما وجهه وملابسه فقد بلغا من البشاعة غايتها، بيد أنه كان الشخص الأكثر مدعاة للضحك من أي شخص آخر يمكن أن تراه في حياتك. قدّم رئيسُ المراسم، بدوره، كل واحد منا للأب الاستوائي. ثم بدأ العرض، فوقفنا أمامه باحترام لنُقسم قسم الأخلاق والشهامة. أخذنا اليمين بأن كررنا خلفه: "أقسم أنني لن أسعى أبدًا لإغواء زوجة بحار أو للتقرب منها، وخاصة أثناء غيابه. بل على العكس من ذلك، من واجبي أن أحميها في جميع الأوقات والمناسبات".

ثم قدّم الأب الاستوائي يده لكل واحد منا ليُقبلها. وقد أخفى إناءً في جعبته، به ما يكفي من الماء لغمر وجهك. بعد تلك السّفاهة، كان عليك أن تضع بعض المال في وعاء خُصّص لهذا الغرض. فإذا أظهر الجندي الكرم كان الأب الاستوائي يتركه يمر بهدوء. أما أولئك الذين بخلوا فقد وجدوا أنفسهم مغمورين بكمية كبيرة من المياه التي أُلقيت فوق رؤوسهم. كان هذا الحفل لطيفًا ومُسليًا لنا، كما أضاع جزءًا لا بأس به من ذلك اليوم. وفي نهاية اليوم جمع طاقم السفينة نحو أربعمئة فرنك، قسّمُوها

فيما بينهم. لقد تنكَّروا على نحو جيد بحيث كان من المستحيل بالنسبة لنا التعرف عليهم".

• تقطعت بهم السُّبل!

توقفت الحملة للمرة الأولى في مالطا، التي سقطت بعد مقاومةٍ رمزية من قبل فرسان القديس يوحنا *Knights of St John*. وخلال إقامته القصيرة بها، أعجب موران *Morand* بالمكان:

> "مدينة ڤاليتا *Valletta* محميةٌ بواسطة كُتَلٍ لا تصدق من الأسوار والتحصينات، التي ينبغي أن تكون قد تكلفت مبالغ طائلة.... أما عن الميناء فهو محصَّنٌ جيدًا داخل أسوار ربما كانت الأفضل في الكون. دخل الأسطول المكون من ثلاثمائة سفينة بكل مهابة، والرايات ترفرف في الهواء، والجنادل تنساب على وجه الماء، والقوارب زينت بالرسوم البديعة، وهي مليئة بالسيدات المتبرجات اللائي خرجن بكامل زينتهن. الفرنسيون والمالطيون والجنود والبحارة والجنرالات، والفرسان ورجال الدين والضباط تداخلوا واختلطوا معًا على نحو مدهش. فمن المدينة إلى السفن، ومن السفن إلى أرصفة الميناء... تدافعت الحشود التي طغت على الشوارع والساحات وعلى الأرصفة وفي المقاهي. تخيل كل هذا الصَّخب والهتافات، والارتباك واختلاف الأزياء والضوضاء، لقد اختلطت وجوه الرجال من كل أمة معًا".

وبعد مغادرة مالطا، كان كليبر *Kléber* مندهشًا لسماعه بعض

التكهنات بشأن اتجاه الحملة، فمن قائل إنها كانت في سبيلها إلى شبه جزيرة القرم *Crimea*، أو ربما - على الرغم من أنهم في هذه الحال ينبغي أن يكونوا قد سلكوا طريقًا خاطئًا- كانوا في طريقهم / إلى البرتغال. ومع ذلك، وحتى بعد أن كشفت بونابرت في توجيهه الشهير عن وجهة الحملة، فإن التكهنات لم تنته. فقد كتب موران *Morand*:"من المؤكد أننا ذاهبون إلى مصر. ولكن هل لإنشاء مستعمرة، أو الانتظار في تلك الولاية العثمانية لفترة كافية لإكمال الاستعدادات لمسيرتنا إلى الهند؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك". وربما بونابرت نفسه لم يعرف ذلك حقًّا، ولكن السفن أخيرًا وصلت إلى وجهتها.

١٦



الجنرال مارمون *Marmont* (الذي يظهر مشيرًا بيده إلى الأمام) يقود عملية إبرار الرجال من الفوج العاشر إلى شاطئ مالطا تحت القصف.

لقد كانت الانطباعات الأولى مخيبةً للآمال تمامًا، كتب دينون Denon بينما كان يتطلع إلى السواحل المصرية البادية في الأُفق: "ليس هناك شجرة واحدة أو آثار عمران محسوس، لقد بدا المنظر وكأنه ليس مجرد طبيعة مقبضة فحسب، بل مدمرة، فليس هناك سوى الصمت والموت. بيد أن ذلك لم يقلل من ابتهاج الجنود، وأشار أحدهم إلى الصحراء ممازحًا جنديًّا آخر بقوله: انظر هناك، هذه هي الهكّارات الست التي سيمنحونك إياها! فارتفع صوت الضحك العابث بين رفاقه على إثر ذلك".

وبمجرد أن لامست أقدامه الشاطئ، شعر الملازم لاڤال Laval بالإحباط وخيبة الأمل: "ليس ثمَّ شيء لنأكله، لا نعرف لغة أهل هذا البلد ولا عاداتهم، هل يمكنك أن تتخيل ما كان عليه موقفي وموقف رفاقي أيضًا؟!". هذا الشعور نفسه تردد في رسالةٍ خطيةٍ كتبها بيرنويه Bernoyer: "كلما فكرت في وضعنا، ظهرت المصيبةُ جليةً واضحةً. فلو حدث أن التقينا مصادفةً بنساء أو أطفال في الشارع، لأطلقوا سيقانهم للريح، لقد كانوا يتجنبُوننا كما لو كنا حيوانات ضارية"[١].

---

(١) يتحدث النقيب مواريه عن أن خوف سكان الإسكندرية من الجنود الفرنسيين كان مرده إلى عاملين اثنين، أولهما الخشية من الانتقام بعد المقاومة التي أبدتها المدينة في وجه تقدم الغزاة، وثانيًا الدعاية والشائعات الإنجليزية التي سبقت قدوم الأسطول الفرنسي مباشرة إلى الشواطئ المصرية، انظر: مذكرات ضابط، ٣٠. (المترجم).

توجيه بونابرت -الصادر في الثاني من يوليو من عام ١٧٩٨- الذي حدَّد أخيرًا الاتجاه الحقيقي للحملة. وقد زعم الجنرال كليبر *Kléber* أنه"لم يكن هناك سوى ٤٠ شخصًا على متن السفن التي أقلت الحملة قد أحيطوا علمًا بوجهتها".

أيها الجنود:

إنكم ستخوضون غمار حرب سيكون لها تأثير عظيم على المدنية وتجارة العالم أجمع، وستضربون إنجلترا ضربة حسّاسةً في صميم فؤادها، على أمل أن تتمكنوا بعدها من استكمال هذه الضربة للقضاء عليها نهائيًّا. أيها الجنود: سنضطر إلى قطع مسافات طويلة ومتعبة سيرًا على الأقدام، وسنقاتل في عدة مواقع، وسنفوز في جميع المعارك؛ لأن العناية الإلهية في صفِّنا.

وبعد أن نضع أقدامنا على أرض مصر ببضعة أيام، سوف نمحو من الوجود هؤلاء البكوات المماليك الذين يرحبون بالتجارة مع الإنجليز دون سواهم، الذين أهانوا تجارنا، وقاسى منهم سكان وادي النيل صنوفًا من الظلم والاستبداد.

واعلموا أن الشعب الذي سنعيش معه يدين بالإسلام *Mohammedans*، ويقوم إيمانهم على مبدأ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فلا تعارضُوهم في معتقدهم، بل عاملوهم كما سبق وأن عاملتم اليهود والإيطاليين. واحترموا مشايخهم وأئمتهم وعلماءهم، كما سبق واحترمتم الرِّبيِّين والقساوسة. وليكن في نفوسكم من التسامح تجاه التقاليد والعادات التى تقضى بها شريعتهم المستمدة من القرآن. وليكن في نفوسكم - أيضًا- من التسامح تجاه مساجدهم مثلما كان لكم من التسامح مع الكنائس والمعابد اليهودية، ومع سائر المتديِّنين بدين يسوع المسيح، وموسى النبي. لقد كانت الجيوش الرومانية قبلكم تحمي جميع الأديان وترعاها.

وستجدون في هذه البلاد عادات تخالف عاداتنا في أوروبا، فلا محيص من أن تألفوها وتعتادوا عليها. واعلموا أن الناس الذين ستعيشون بينهم يعاملون النساء على غير ما اعتدناه في بلادنا، وقد أجمعت الأمم أن من يتعدَّى على امرأة فهو حيوان في ثياب البشر. وأما النهب والسلب والسرقة فلن تغنى إلا فئة قليلة منكم، ولكنها في الأخير أعمال وضيعة تحط من قدرنا، وتنقص من شرفنا، وتبغض قلوب الناس فينا، وهم الذين من صالحنا أن نكون معهم على صفاء وود.

وسرعان ما تبدد أي أمل في العودة السريعة إلى فرنسا بعد شهر واحد من الإبرار، عندما نجح أسطول نيلسون في حصار السفن الفرنسية الراسية في خليج أبي قير أخيرًا ثم هاجمها بغتة. وعلى الرغم من أن معظم الجيش كان قد غادر الإسكندرية وسار إلى القاهرة، فقد ظل العديد من الجنود الفرنسيين بالإسكندرية بهدف تفريغ مخازن سفن الأسطول. وقد شهد معظمهم هذا الاشتباك البحري الأول، وكان لتدمير سفينة القيادة المشرق *Orient* أكبر الأثر في نفوسهم. كما يذكر كايو *Cailleux*:

"... عندما تناهت إلى أسماعنا أصوات طلقات المدافع الأولى، أخذنا في تسلق تلك الكثبان الرملية الصغيرة حيث يمكننا أن نرى البحر والأسطولين المتقاتلين على نحو واضح، لذا فقد كنا شهودًا على تلك المعركة الرهيبة دون أن نكون عرضةً للخطر. لقد صبت المدفعية من كلا الجانبين جام غضبها على الآخر، وكانت أصواتها تشبه إلى حد كبير صوت الرعد.

وعندما حل الظلام سريعًا، كانت نيران المدافع واضحةً جدا بحيث يمكن للمرء أن يعتقد بأن ثمة مدينة تحترق.... وكانت النيران قد اشتعلت، للأسف الشديد، في سفينة القيادة المشرق *Orient*، والتي كانت السفينة الأكبر في السربين المتقاتلين، وقد تم إخماد النيران على الفور. ومع ذلك، هاجم الإنجليز "المشرق" بأربع سفن إضافية. ودافعت المشرق عن نفسها ببسالة، وكانت على وشك إجبار اثنتين من سفن العدو على الاستسلام عندما اشتعلت فيها النيران / بغتةً للمرة الثانية.... بيد أن النيران هذه المرة قد امتدت إلى الصاري

١٧

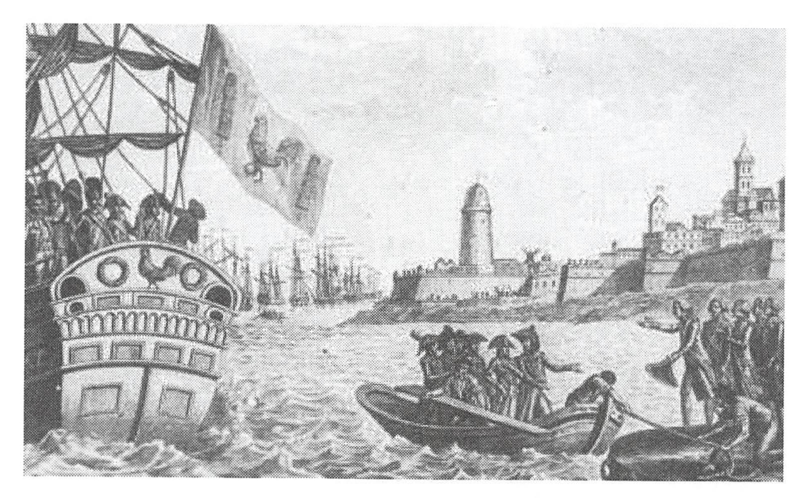
الرئيسي، وسرعان ما اشتعلت في الأشرعة والحبال والصواري، ومن ثم كان من المستحيل إخمادها. ومع ذلك دافع طاقمها عن أنفسهم بشجاعة، واستمروا في القتال حتى اللحظة التي رأوا فيها النار قد وصلت إلى جناح القديس بارب *Sainte-Barbe* وهذا هو الاسم الذي كان يُطلق على مخازن البارود. لقد قلب ذلك الأمر كل الموازين رأسًا على عقب. كان على الطاقم أن يرموا أنفسهم في البحر وأن يسبحوا إلى البر، بينما لم يكن ثم خيار آخر لهؤلاء المساكين من الجرحى إلا البقاء على متن السفينة، فراحوا ضحايا لتلك المعركة البشعة. وأخيرًا، وفي الساعة العاشرة ليلًا، وصل الحريق إلى مخازن الذخائر فنُسفت السفينة نسفًا، وحلق الحطام في الهواء بفعل الكميات الهائلة من القنابل والمقذوفات التي انفجرت في جلبة مروعة. لقد كان الانفجار قويًّا إلى درجة أن الأرض اهتزت بشدة تحت أقدامنا".

كما شهد جراندچان *Grandjean* اللحظات الأخيرة للسفينة المشرق *Orient*:

"لقد كان مشهدًا مروعًا ومخيفًا إلى أقصى حد. لقد كنت في الإسكندرية أُطل من إحدى الشُّرفات، وعلى الرغم من المسافة التي تفصل بين وسط المدينة والحدث تعدت الثلاثة فراسخ *leagues* [١] فقد استطعت أن أرى نيران

---

(١) أكثر من ١٠ كيلومترات. (المترجم).



القارب الذي أقلَّ بونابرت في طريقه إلى شاطئ مالطا لاستقبال وفد فرسان القديس يوحنا الذي عرض الاستسلام. فضلًا عن الاجتماع بجنرالاته لوضع خطط تأمين هذا المنفذ الحيوي على البحر المتوسط، وغني عن الذكر أن القوات الفرنسية قد صادرت هناك كميات هائلة من الكنوز.

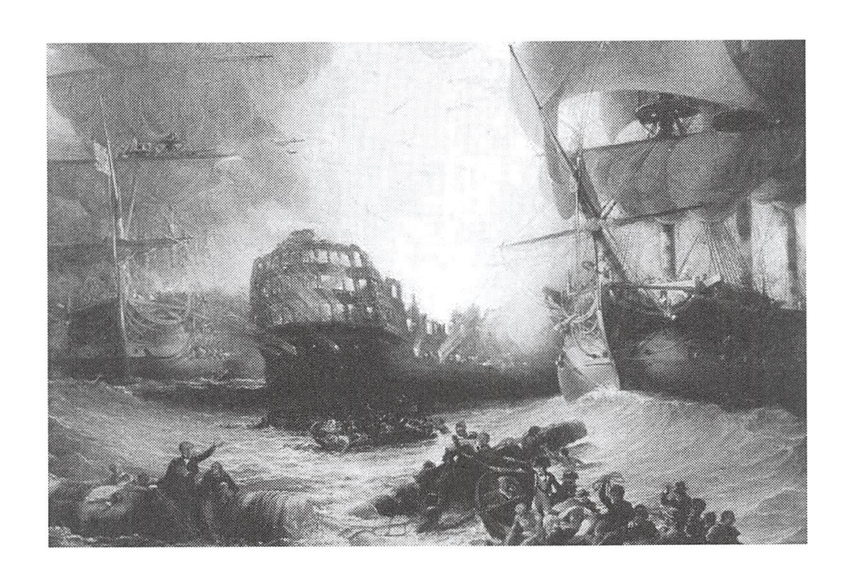
المدافع التي كانت سريعة وقريبة جدًّا من بعضها البعض، حتى إننا لم نستطع أن نميز واحدًا منها عن الآخر. وعندما انفجرت المشرق، كان بإمكاننا ملاحظة تطاير الرجال في الهواء، وقد شبَّت النيران في المدافع والأشرعة والصواري وكان الميناء كله يشتعل. وفي لحظة الانفجار، كانت الإسكندرية مضاءة وكأننا في وضح النهار"(١).

---

(١) يتحدث نقولا الترك عن أن النيران ظلت مشتعلة بالسفينة المشرق لأربعة أيام متواصلة قبل أن تتحول إلى رماد سرعان ما وجد طريقه إلى أعماق البحر أخيرًا. انظر: نقولا الترك (نقولا بن يوسف أغا الترك المتوفى ١٨٢٨م)، تاريخ نقولا الترك، في: أمل بشور، حملة بونابرت إلى الشرق، مخطوطة نقولا الترك، دراسة وتحقيق، (طرابلس، جروس برس، ١٩٩٣)، ١١٠.

ويذكر موران *Morand* أيضًا كيف كان تأثير هذه الأحداث على الحالة المعنوية للجنود في اليوم التالي: "لم يكن ثم أحد يجهل نبأ خسارة الأسطول، لقد ساد الذعر الشديد بين الجنود، حيث أدرك الجميع الآن أن السبل قد تقطعت بهم / في مصر. "لقد استندت آمال جميع الفرنسيين في مصر على نجاح تلك المعركة". وكان تفكير جراندچان Grandjean يعكس قلقه الشديد: "إن نبأ تدمير الأسطول قد انعكس على كل مشاريع الحكومة، وخفض معنويات الجميع، ولم يكن استهلالًا غير موفقٍ فحسب، ولكنه كان أمرًا ينذر بسوء طالع عظيم".

١٨



لحظة انفجار سفينة القيادة الفرنسية، المشرق *Orient*. كتب موران قائلًا: "كانت المصاطب في الإسكندرية مليئةً بالنظارة. وكان انفجار "المشرق" رهيبًا، إلى درجة أننا شعرنا بقوته ونحن على تلك المصاطب على مسافة تعدت ثلاثة فراسخ.



عالمٌ آخرُ!

لم يكن ثمَّ خيار آخر أمام الجنود الفرنسيين إلا البقاء في مصر، على الأقل خلال المستقبل المنظور. وقد لاحظ الملازم لاڤال *Laval* كيف أنه بات من الضروري على الجنود تحسين العلاقات مع الأهالي:

"شيئًا فشيئًا أصبحنا أقرب إلى الأتراك[١]، وبذلنا قصارى جهدنا، وبكل الطرق المتاحة، لإفهامهم بأننا نرغب في الحصول على شيء صالح للأكل، وعبر هذا السبيل يصبح لدينا كل ما هو ضروري من أجل الاستمرار في البقاء على قيد الحياة. وحالما رأى التجار أننا ندفع لهم لقاء ما نحصل عليه منهم، بادروا إلى دعوتنا للفُرجة على أمل إقناعنا بشراء شيء ما منهم. وبطبيعة الحال فقد استغرق الأمر منا بعض الوقت لنتعلم القليل الضروري من اللغة العربية. ومن جهة أخرى فإن بعض اليهود الذين كانوا يعرفون قليلًا من الإيطالية خدمونا كمترجمين.

---

(١) وصفُ التركي في هذه الحقبة كان مرادفًا "للمسلم" في الأدبيات الأوروبية المعاصرة. كما سبق وأن نوه المؤلف من قبل. (المترجم).

إنهم [أي التجار المصريين] يحدثون بعض الضجة في المساومة عند رؤيتهم عُملتنا من القروش Piastres[١]، في حين أنهم يظهرون الحماس عند رؤية البارات Parats، وهي عملة فضية صغيرة تقدر بقيمة ثلاث ريالات Liards، وعند حصولهم عليها فإنهم يقذفونها بمهارة في أفواههم، ويخزنونها بالطريقة نفسها التي تخزن القرود بها حبات الجوز".

كما ذكر موران Morand: "لقد كانوا لا يخفون ابتهاجهم عند حصولهم على أزرار معاطفنا، وذلك بسبب لونها الأصفر الذهبي، إضافة إلى تصميمها الذي كان يضم حلقات سمحت لنسائهم بتثبيتها في شعورهن زينة لهن".

وقد حسب بونابرت سعر الصرف على النحو التالي: "مائة وخمسين بارةً لكل قرش Piastre. وكانت هذه الخطوة ضروريةً نظراً لاندلاع العديد من المشاجرات بين السكان المحليين والجنود حول حساب سعر صرف العملات المختلفة".

١٩ / وبالنظر إلى موقع البلاد عند مفترق الطرق بين إفريقيا وآسيا فقد كان هناك الكثير من السِّلع التي أغرت الجنود بشرائها، ليحتفظوا بها جنباً إلى جنب مع غنائمهم. فيذكر بونيفونس Bonnefons:

"إن البضائع التي تباع في الأسواق شملت القماش والشاش والحرير والتبغ والصوف والسكر والبن والنِّيلة والصابون والبخور والتوابل. وقد وصلت هذه البضائع في غضون هذا العام في ست قوافل. فقد وصلت قافلةٌ من بلاد الحبشة إلى القاهرة برَّاً سيرًا بطول نهر النيل، تحمل معها اثني عشر مئة (١٢٠٠) من العبيد السود من الجنسين، بالإضافة إلى العاج

---

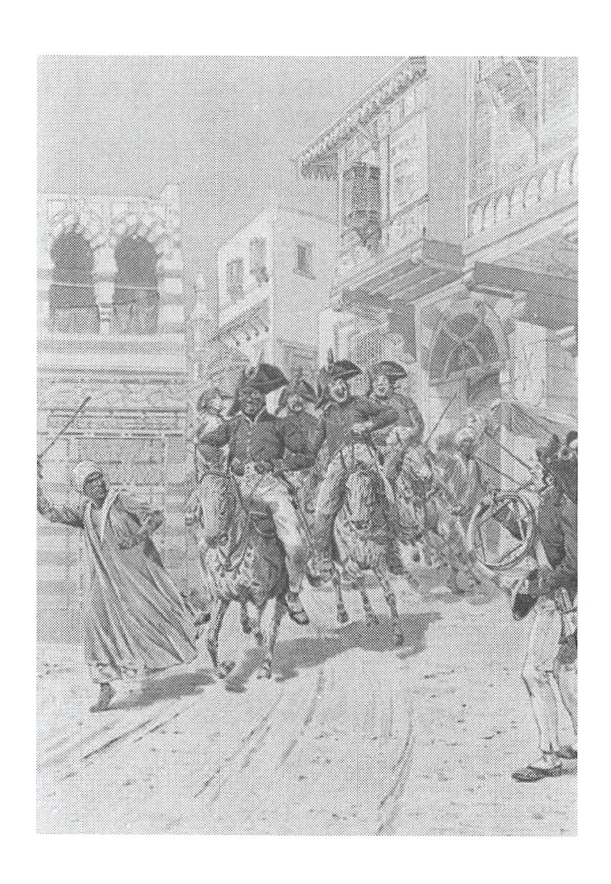
(١) تلك التي أسماها المصريون "ريال فرانسة" انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، ٢: ١٩٣. (المترجم).

وتراب الذهب وريش النعام والمطاط والببغاوات والقرود. أما القافلة الثانية فقد جاءت من المغرب، سيرًا بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، وكانت محملة بالكشمير والتوابل الهندية والعطور والقهوة. في حين وصلت القافلة الثالثة من الشام ودمشق، وحملت الحرير والقطن والزيوت والفواكه المجففة. ووصلت القافلة الرابعة من الأناضول وقد حملت التبغ الممتاز، الذي يستهلك هنا للتدخين بشراهة. أما القافلة الخامسة فقد وصلت من القسطنطينية *Constantinople* وحملت الملابس والأسلحة والفِراء. وجاءت السادسة من البندقية *Venice* وليڤورنو *Livorno* ومارسيليا *Marseille*، وحملت معها قطع القماش والنسيج والورق والحديد والرَّصاص والذهب البندقي".

وعلى الرغم من اقتناء العديد من الفرنسيين الموسرين للعبيد، فقد وجد لاڤال *Laval* في تجارة الرقيق عملًا بغيضًا:

> "لقد باع التجار الحبشيون هؤلاء التعساء كما الخيول في أوروبا، وكان العبيد من الذكور والإناث عراةً، باستثناء / مِئزر يكاد يخفي العورة فحسب،... وبدت على وجوههم العديد من الندوب التي قاموا هم أنفسهم بعملها لتجميل أنفسهم. فلدى النساء حلقات معدنية التفت حول اليدين والقدمين، بل وتدلت، أحيانًا، من آذانهن وأنوفهن أيضًا، لذلك فهن يحرصن على ثقب إحدى فتحتي الأنف. كما كانت شعورهن مجدولة في خُصلات مدهونةٍ بالزيت.... وجاء أغلب العبيد من الزنوج من جوف أفريقيا التي استولى عليها العرب، كما شكَّل هؤلاء التعساء الذين كانوا يُسبون في المعارك مصدرًا آخر لتلك التجارة البغيضة. وكانوا يباعون في أسواق القاهرة بأسعار تتراوح ما بين ٤٠ إلى ١٥٠ قرشًا *Piastres*، وذلك استنادًا إلى السن وقدر الجمال أو القوة".

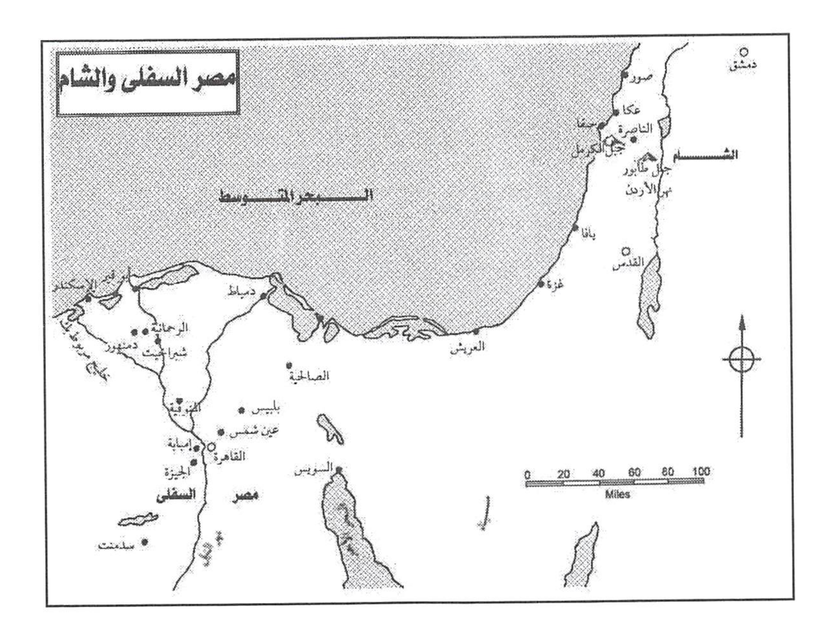
٢٠



على الرغم من تفاوت الأجور بين جنود الحملة، فقد جلبت غنائم الحرب مبالغ مالية كبيرة حتى بالنسبة لحثالة الجنود. فقد كتب الضابط الفارس عقب معركة الأهرام (إمبابة): "حصل رجالنا على مبالغ مالية كبيرة من غنائم المعارك مع المماليك. إذ كان من الواجب تقسيم تلك الصُّرر المليئة بالذهب، والأسلحة الثمينة، والملابس الفاخرة بين الجنود المنتصرين.... فحاز عدد كبير من الجنود كميات كبيرة من الغنائم التي سرعان ما أنفقوها ببذخ. فاشترى معظمهم الحمار الريفي الصغير، الذي أطلق عليه الفلاحون المحليون اسم "الجحش"، وهو حيوان تمتع بالرشاقة وخفة الحركة. لقد كان مشهدًا مُسليًّا جدًا أن نرى كبار فرساننا وهم يتسابقون فيما بينهم وهم على ظهور تلك "الجحوش" عبر الحواري الضيقة والمتعرجة، وقد حملوا البنادق والحراب على ظهورهم، وقد لفُّوا سيقانهم حول بطونها"(١).

---

(١) قال الجبرتي: " وأما أرباب الحرف الدَّنيئة الكاسدة فأكثرهم عمل حمَّارا مكاريًّا حتى صارت الأزقة -خصوصًا جهات العسكر- مزدحمة بالحمير التي تُكرى =



وشاركه بونيفونس *Bonnefons* في الاشمئزاز من تجارة الرقيق بقوله:

"إن الإنسانية تثور عند مرأى هؤلاء الضحايا لقهر الرجال. لقد ارتعدت فرائصي رعباً عندما شَهِدت وصول تلك النُّفوس الفقيرة البائسة -شبه عارية- وقد قُيدوا بالسلاسل واحداً إلى الآخر، وقد ارتسمت على وجوههم - حالكة السواد- نظرة تحمل معنى الموت. وسُعِّروا في السوق حتى يباعوا باحتقار كما الماشية".

= للتردد في شوارع مصر، فإن للفرنسيس بذلك عنايةً عظيمةً ومغالاة في الأُجرة، بحيث إن الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجري به مسرعاً في الشارع، وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويجهدونها في المشي والإسراع وهم يغنون ويضحكون ويصيحون ويتمسخرون، ويشاركهم المكارية في ذلك". عجائب الآثار، ٢: ٢٤٩-٥٠. (المترجم).

بيد أن الفرنسيين أظهروا حماسًا أكبر عند الحديث عن الحمامات العامة على الطراز العثماني: فيذكر دوجيرو *Doguereau*:

"بعد أن يُلف الرأس والجسم بالمناشف... يقودك صبيٌّ إلى حمامات البخار، وهي غرف يصعب تحمل البقاء فيها لمن كانت هذه هي تجربته الأولى له، حيث يتعرق المرء كثيرًا. وبعد طرقعة الأطراف، وتدليك الجسم باستخدام نسيج من الصوف الغليظ، ينقلونك إلى حوض كبير مملوء بالماء الذي قارب حدَّ الغليان. وبعد خروجك من المياه يقومون بصب الصابون عليك صبًّا، وبعد أن يجهزوا لك مئزرًا جديدًا من الكتّان، فإن الصبي يأخذك إلى السرير مجددًا حيث يقوم بتدليك الجسم لأكثر من ساعة، مع ليّ وطرقعة أصابع اليدين والقدمين".

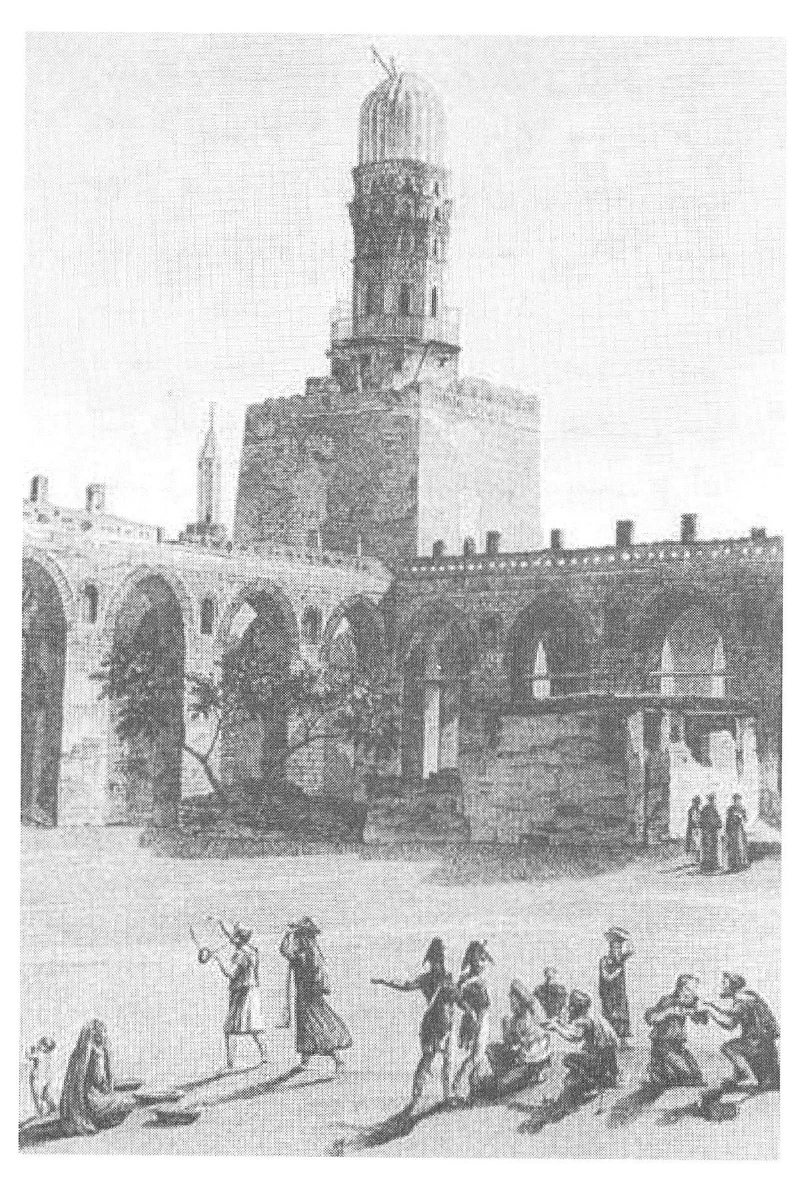
وتمتع النقيب مواريه *Moiret* بهذه التجربة نفسها:

"... كانت هناك أربع غرف صغيرة، واحدة على كل جانب. وكان البخار يصعدُ باستمرار من الينبوع، وكذلك من الحوض الذي يغلي فيه الماء حيث يُخلط بالعطور. وقد بدأت في التعرق بغزارة حين وصل ذلك العبد الذي دلَّك جسدي، وتلاعب بمفاصلي حتى أصدرت أصواتًا تشبه الطرقعة. لقد فعل كل هذا دون أن يتسبب لي بأدنى مشقة أو إزعاج. وكان يدلكني مرتديًا قفازًا من النسيج، وبالغ في ذلك على نحو مستمر ولمدة طويلة. ثم قادني إلى واحدة من المقاصير

المجاورة، وسكب العطور والصابون فوق رأسي وتركني. حيث كان ثمّ صنبوران في المقصورة، أحدهما للماء الساخن، والآخر للماء البارد، وذلك كي أتمكن من تنظيف نفسي تمامًا. وبعد الاستحمام قمتُ بلف منشفة من الكتان حول جسدي، وتابعت سيري من خلال الممرات المؤدية إلى الردهة الخارجية.... حيث غيرت ملابسي مجددًا، وكشط الصبي باطن / قدمي بلطف باستخدام حجر الخفاف. وأخيرًا أحضر لي كوبًا من القهوة السوداء المنعشة.... يصعب عليّ أن أستوعب أن تجربةً كهذه يمكن أن تكون من دواعي سروري، خاصةً في ظروف كتلك التي سردتُها! فعندما يكون المرء منغمسًا في الحرارة الشديدة مع ذلك الضباب والرطوبة المنبعثين من غرفة البخار، حيث يتصبَّبُ العرق من الجسم تَصبُّبًا، ثم ينتقل إلى غرفة واسعة مفتوحة على الهواء الطلق، فإن الرئتين تتنسمان الهواء البارد على نحو شهواني. فيما ينساب الدم انسيابًا في العروق، إن الأمر قد يبدو لك كما لو أن وزنك قد انخفض بغتة وعلى نحو حاد. لقد انتابني شعور جارف بالليونة والخفة، تمامًا كالطفل حديث الولادة الذي يتنسم نسمات الحياة للمرة الأولى. لقد عُدت هناك في كثير من الأحيان، أحيانًا وحدي، وأحيانًا أُخر مع أصدقائي".

٢١

واصل الفرنسيون التكيف مع الطرق المصرية الأخرى في الحياة، كعادات شُرب القهوة القوية، وتدخين التبغ عبر النارجيلة، كما يذكر بونيفونس *Bonnefons*:



القوات الفرنسية خارج أحد مساجد القاهرة. ألمح بونابرت إلى أن الجيش الفرنسي برمته قد يعتنق الإسلام، لكنه كان يعرف ضآلة فُرص رضوخ رجاله للختان، وكذا إقلاعهم عن شرب الخمر، مما حد كثيرًا من فاعلية حيله الدعائية.

"هذه الأمة خَمول للغاية، بحيث إنه ليس من النادر أن ترى الشوارع مليئةً بالرجال الذين افترشوا الحصير، وجلسوا مُتربِّعين يدخنون التبغ عبر النارجيلة الفارسية المثبتة على الأرض بإزائهم، وهي عبارة عن قارورة مملوءة بالماء، يمر عبرها الدخان قبل الوصول إلى الفم. ومعظم هذه القوارير إما مصنوعة من الفخار أو من جوز الهند، ويخرج منها خرطوم من الجلد المرن، ينتهي إلى مبسم من القصدير أو النحاس المشغول".

ولأن المصريين قوم مسلمون، فقد كان هناك حظر تام مفروض على بيع وشراء الكحوليات في الأسواق. وفي ظل افتقاد الخمور، فقد ابتكر الجنود الفرنسيون شرابًا مصنوعًا من الحشيش، وكثيرًا ما شوهدوا يدخنون بذور القُنَّب الهندي أيضًا. وعندما تحققت قيادة الجيش من الأثر السلبي لهذه العادات على نشاط الجنود وحيويتهم، قامت السلطات الفرنسية بمنح إنتاج الخمور أولوية خاصة تلبية لاحتياجات رجالها.

ووصف لاڤال *Laval* كيف صُنعت أجهزة التقطير لصناعة العَرَق *eau-de-vie* من تمور النخيل. وهي "الثمار الأكثر شيوعًا في ذلك البلد". وسرعان ما رأى جراندچان *Grandjean* المقاول في هذا فرصةً كبيرةً له لجني بعض المال: ".. لقد أنشأنا مصنعًا لإنتاج البراندي *brandy* وعرق القصب *rum*، وهو الأمر الذي جعلنا نربح بعض المال". ومع ذلك، استمر الطلب على الحشيش الذي لم يتأثر قط بهذه المتغيرات. وبعد أكثر من عامين في مصر، وتحديدًا في ٩ أكتوبر من عام ١٨٠٠، كان الكيل قد فاض بقيادة الجيش أخيرًا، فأصدرت الأوامر التالية:

المادة الأولى: نظرًا لأن المدخنين المدمنين للقنَّب الهندي يفقدون صوابهم، ويعانون صنوفًا من الهذيان العنيف، فإنهم بذلك عرضة

لارتكاب كل أنواع التجاوزات والمحظورات:، ومن ثم فقد تقرر حظر شرب تلك المشروبات التي يُعدها بعض المسلمين من القُنَّب الهندي (الحشيش)، كما تقرر حظر تدخين بذور القُنَّب الهندي في جميع أرجاء مصر.

المادة الثانية: يحظر إعداد الحشيش شرابًا في جميع أرجاء مصر. وعليه: تغلق أبواب المقاهي والمطاعم التي تقدمه لروادها، كما يُعرِّض أصحابها أنفسهم للسجن لمدة ثلاثة أشهر.

المادة الثالثة: تصادَر وتحرق علنًا - وعلى رؤوس الأشهاد- جميع بالات الحشيش الخام التي تصل إلى الجمرك تباعًا.

وأكد كبير جراحي الحملة الطبيب ديجينيت *Desgenettes* (الذي اختبر تأثير تلك المخدرات معمليًّا) على هذا الحظر قائلًا: "إن القائد العام [يعني الجنرال مينو *Menou*] قد حظَر -تحت العقوبة المشددة- / استيراد الحشيش وتحضيره وبيعه، وكذلك تقطيره الذي ينتج عنه تلك السوائل المخدرة. كما حظَر تدخين بذور القُنَّب الهندي". وعلى الرغم من هذه التدابير، فإن الحشيش تتبع القوات الفرنسية عقب جلائها من مصر إلى أوروبا، حيث رسَّخ أقدامه في القارة العجوز ببطء على مدار القرن التالي. ٢٢

وعلى الرغم من أن القوات الفرنسية واصلت تكيُّفها القسري على طريقة الحياة الجديدة، فإن معظم الفرنسيين ظلُّوا يعانون بشدة من الحنين إلى الوطن *homesickness*. تحدث دوجيرو *Doguereau* عن افتقاده لوطنه، وتأثير ذلك عليه:



المهندسون العسكريون الفرنسيون يكسرون سدًّا على النيل إبان الفيضان. كان تحديث الزراعة في مصر أمرًا حيويًّا بالنسبة للفرنسيين الذين تطلعوا للاستغلال الأمثل للموارد في مستعمرتهم الجديدة.

"إن الحياةَ التي نحياها هنا مضجرة إلى حد كبير، وذلك على الرغم من أننا كنا جميعًا شبابًا معًا، لقد كانت مختلفة بالكلية عن تلك الحياة التي كنا نحياها في أوروبا، لقد عانينا صعوبات جمة، فأصبحت اعتيادية بمرور الوقت. إذ إن الحرارة المتطرفة لم تمكنَّا من الخروج للتنزه قط. وحتى لو كان باستطاعتنا الخروج، فإلى أين نذهب؟! ليس ثمَّ إلا الرمال والركام في طريقنا إلى بوابات المدينة، ولما كان هناك احتمال قائم لتعرضنا لهجوم من قبل العُربان، فإننا كنا بحاجة إلى خِفارة. كما لم يكن بحوزتنا الكثير من المال. لقد تمنينا لو عدنا إلى فرنسا في أقرب وقت ممكن".

وفي محاولة لرفع الروح المعنوية، أصدر الجيش جريدةً للأنباء المختارة من أوروبا في صحيفتين شعبيتين هما *"Le Courrier d'Égypte"* و *"La Décade Égyptienne"*. كما جرت محاولات أخرى لعلاج مشاعر الحنين إلى الوطن المتنامية بين الجنود. فقد وجدنا موران *Morand* سعيدًا مبتهجًا وهو يروي:

> "قريبًا، سيكون هناك في ثكنات الأزبكية وبركة الفيل حيٌّ على الطراز الفرنسي، فقد أنشأنا المقاهي وبعض المطاعم الفرنسية والمحلات التجارية وورش العمل لأنواع الصناعات اللازمة للجيش".

وقد توسعت تلك الأنشطة توسعًا سريعًا كما أشار جراندچان *Grandjean*:

> "بعد عدة أشهر تم تأسيس نادٍ تحت اسم "سوسيتيه دي تيڤولي *Societé de Tivoli*" حيث قضينا أمسيات كل يوم، ووجد الأعضاء هناك طاولات القمار من كل نوع، وقد أعدت لهم. أما هؤلاء الذين لم يرغبوا في اللعب فقد وجدوا أرائك معدة للجلوس، حيث يستغرقون في المسامرة وتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم حتى العاشرة أو الحادية عشرة مساء. وكان سعر هذه المتعة اشتراكًا شهريًّا بلغ قطعتان تاليرز *Talaris* (أي أقل من ١١ ليڤرًا *Livre*)....وبعد جلاء الجيش عن الشام، أضاف المواطن دارجينڤال *Dargenval* مدرسةً للفروسية ضمن مرافق النادي....، بحيث كان لكل مدرب عدد من الدارسين من ضباط الصف *sous-officier* الذين

درسوا هناك حصتين يوميًّا[١].

كما احتفل الفرنسيون بعيد الجمهورية في الثاني والعشرين من أيلول من عام ١٧٩٨. ووصف دوجيرو *Doguereau* كيف سار الاحتفال بذلك اليوم:

"بعد المناورات والاستعراضات المختلفة التي أدَّتها فصيلتنا، استعرض الجنرال القوات التي اصطفت أمامه، ثم ألقى خطابًا للجيش في منتصف الحفل[٢]. كما كان هناك حفل عشاء كبير في مقر إقامة بونابرت. ثم أطلقنا المنطاد الذي فاجأ العديد من المصريين[٣]. وفي المساء كانت هناك ألعاب نارية صاخبة". واحتفى الضابط الفارس بسخاء الجيش"في توزيع القهوة والنبيذ - في أيام الاحتفال- بلا حساب على الجنود الذين طافوا أرجاء المدينة وهم ينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية مثل أنشودة الرحيل *"Le Chant du Depart"* أو النشيد الوطني *"La Marche des Marseillaise"*.

كما شيَّد بونابرت - خلال المهرجان- نُصبًا تذكاريًّا أقيم تكريمًا له وتخليدًا لانتصاراته في مصر، وقد شيِّد هذا النصب من الأعمدة الحجرية

---

(١) قارن: الجبرتي، عجائب الآثار، ٢: ٢٣١. (المترجم).

(٢) من المثير للدهشة أن الجبرتي -الذي يُشتبه في أنه كان ضمن المدعوين إلى هذا الاحتفال- يتحدث عن أن كبير القُسس هو الذي ألقى هذه الكلمة. عجائب الآثار، ٢: ٢٠٧. ومن المعروف أن نابليون لم يصطحب معه قُسسًا أو رُهبانًا. وفضلا عن شهادة دوجيرو يشهد مواريه أن نابليون هو الذي ألقى هذه الكلمة بنفسه! قارن: مذكرات ضابط، ٦٦. (المترجم).

(٣) قارن: الجبرتي، عجائب الآثار، ٢: ٢٣٠. (المترجم).

وتم تزيينه باللوحات الفنية[1]. وتحدث الجنرال كليبر *Kléber* عن سخرية القدر من مصير هذا النصب: "فبعد المهرجان، قام الجنود بنقب قاعدة النصب، ودخلوه، فوجدوا فيه مكانًا رائعًا للعبث مع القحاب *Kahpées* المصريات، لذا سرعان ما أصبح ملجأ للفسق والفجور".

٢٣ / ومع العدد القليل جدًّا من النساء الفرنسيات اللائي رافقن الحملة، كانت علاقات الجنود بالقحاب المحليات (*kahpées* هو النطق الفرنسي للكلمة العربية المحلية "قَحْبة" وهي الكلمة التي أُطلقت على العاهرة *prostituée*) علاقات قصيرةَ الأمد، ولم تكن تعني شيئًا ذا مغزى، فقد كتب العريف كايو *Cailleux*:

> "على الرغم من صرامة الرجال تجاه المرأة هنا، فإن هذا لم يردعنا أبدًا عن البحث عن البغايا للمتعة الجنسية. فبالكاد كانت هناك بلدات وقُرى لم تعرف الحرملك. حيث دأبت النساء على الخروج وقضاء جُلِّ أوقاتهن في الحمامات، منهمكات في غسل أبدانهن بالصابون، الذي أسبغ عليهن مَسْحةً من البياض الشَّاحب. في حين رسم عدد كبير من النساء بقعًا أو وشمًا على أيديهن وذقُونهن، ودأبن على تسويدِ أجفانهن ليظهرن أكثر جمالًا".

وفي حين كان الفرنسيون الموسرون قادرين على شراء الجواري (على سبيل المثال فإن ربيبَ بونابرت، أويجين بوهارنيه *Eugène Beauharnais*، اشترى لنفسه سُرِيَّة أفريقية بثمن بلغ نحو ١٨٠٠ ليفر)، فإن فرنسيين

---

(١) قارن: الجبرتي، عجائب الآثار، ٢: ٢٠٤-٠٥. (المترجم).

آخرين وجدوا أن إقامة علاقات ذات معنى مع الفتيات المصريات أمر بالغ الصعوبة. وصدم كثيرون منهم حقًّا جراء الوضع الاجتماعي المتدني للمرأة المصرية، وذلك الحَجر على حريتها في ظل الشريعة الإسلامية. لقد كان ارتداء النساء للبُرقع أمرًا أدهش مواريه *Moiret*:

"كان النساء يرتدين ثوبًا أزرق طويلًا من القطن، الذي لم يغطِّ سوى جزء من عوراتهن. إذ كانت أثداؤهن دائمًا على مرأى من الجميع. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان إظهارهن لوجوههن مسألة جد مختلفة. إذ كن يحرصن على تغطية وجوههن بعناية بقناع أسود التف حول العنق ليُطبق على الوجه متصلًا بقناع آخر التف حول الرأس، وارتبطا معًا بالخطاطيف. إن هذا لم يبق سوى العينين واضحتين للناظرِ... وكانت عباءاتهن - في كثير من الأحيان- غير سابغةٍ، فعرضت ما يستحق الإخفاء أكثر بكثير من مجرد وجوههن. لقد ذهبن وغدون حافيات، مثلهن في ذلك مثل الرجال، كما حاكين الرجال أيضًا ببشرتهن السمراء الداكنة. وقد اعتدنا - في جميع القرى- أن نرى الفتيات من سن اثني عشر إلى أربع عشرة سنة يمشين عاريات. لربما كان البؤس هو ما جعلهن يعتدن على تلك البذاءة التي صدمت أخلاقنا وعاداتنا بشدة "(١).

---

(١) إذن كيف رأى المصريون الفرنسيين؟ قال الجبرتي: "فهؤلاء القوم [يعني الفرنسيين] خالفُوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين. فتراهم دهريةً مُبطلون، وللمَعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون. ويقولون =

٢٤ / وأثار موضوع الحريم عند المصريين الموسرين فضولًا عظيمًا عند الجنود الفرنسيين. فقد سجل لاڤال *Laval* ما نصه:

"إن عادات وتقاليد سكان وادي النيل على النقيض تمامًا من تلك التي في أوروبا، فقد عزل الأتراك زوجاتهم عن العالم، فهؤلاء الأثرياء يمكنهم اقتناء النساء أنَّى شاءوا، فليس ثم حدود لأعدادهن". وأضاف جراندچان *Grandjean*: "لقد حبسوا نساءهم في الحرملك، وهو جزء من البيت عادة ما احتل القسم الأعلى من الدُّور. وقد أُوصدت جميع النوافذ والأبواب بعناية. بينما حرص السيد على أن يبقى المفتاح دائمًا في جيبه هو فحسب. ومن ثم فإنه ليس بمقدور هؤلاء النسوة الاتصال بالغرباء، كما ليس بوسعهن الحديث إلى أي رجل

= بقدم العالم والحوادث الكونية بالحركات الدورية، وظهور الملل وانتقال الدول بموجب طبع القرانات وامتزاج المناظرات. وربما اعتقدوا تناسخ الأرواح إلى غيرها من الأشباح، ومثل ذلك من الخبالات وأنواع الضلالات. وعقيدتهم السَّالكون فيها تحكيم العقل، وما تستحسنه النفوس بحسب الشهوات. ولا يُبالون بكشف العورات، مع قبحه في العقل والنقل، فمتى دعت أحدهم الحاجة قضَاها في أيِّ مكان اتفق، ولو بمرأى من الناس، ويذهب كما هو من غير استنجاء ولا استجمار. وتارة يمسح المحل بما يجده ولو ورقة مكتوبة. ويطأون كلما تيسر لهم من النساء. ويحلقون لحاهم وشواربهم معًا، ومنهم من يبقي شعر عارضيه فقط، ولا يحلقون رؤوسهم ولا عانتهم. ويخلطون في مأكولهم ومشروبهم. ولا يخلعون نعالاتهم أبدًا، ويطأون على الفُرش الثمينة، ويمخُطون ويبصقون على الفراش، ويمسحونه بالمداس". انظر: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرازق عيسى، عماد أحمد هلال، (القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ١: ١١٢-١٣. (المترجم)

آخر دون إذن من سيدهن، وخلا العبيد السود المخصصين لخدمتهن وإعداد ما يلزم من الطعام لهن، فإنهن لم يعرفنَ رجلًا آخر البتة".

وعلى الرغم من ذلك، فقد تغلبت بعض العلاقات المتبادلة بين الجنود والفتيات المصريات على تلك القيود الاجتماعية، فكتب الرقيب أنطوان بونيفونس *Antoine Bonnefons*:

"ليس بوسع المرء أن يكوِّن فكرة حقيقية عن عبودية النساء هنا، فأزواجهن - أو بالأحرى هؤلاء الطغاة- يحطون من قدرهن بشدة.... وخلال إقامتنا بمصر، فإن إغراء الذهب جعل العديد من المومسات يثرثرن مع صديقاتهن حول أجواء الحرية التي تمتعن بها مع الأوروبيين. وشكَّل هذا إغراءً حقيقيًّا للمُستمعات إليهن، فرغبن أن يحذين حذوهن. فإذا لم يحل أحد من ذويهن دون ذلك الفيضان من الحرمان المعنوي من خلال تهديده لنسائه بعقوبات رادعة، لكانت الفحشاء قد استشرت بينهن إلى أقصى حد!.... فدون أن تفكر الفتاة فى الطرد مستقبلًا من منزل أبويها، باعت نفسها لنا بحرية تامة، وعند أول محاولة!"(١).

---

(١) وكتب الجبرتي قائلا: "وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس، ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكثائف مطبوعاتهم =

وسجل لاڤال *Laval* أسعار قضاء الأُمسيات مع هؤلاء القِحاب خلال ثورة القاهرة الثانية في مارس من عام ١٨٠٠ ثم أردف: «لقد أحرق الأهالي تقريبًا جميع النساء اللائي دأبن على الاتصال بنا في الميادين العامة".

• **الجريمة والعقاب:**

فُرض الانضباط العسكري الصارم بين صفوف القوات الفرنسية، وذلك درءًا للمشكلات التي قد تحدث مع أهالي البلاد. ففي بواكير عمر الحملة كتب بيرنويه *Bernoyer* في ٩ يونيو عام ١٧٩٨:

> "إن الانضباط الشديد يسود بين القوات هنا، وفي حضرة الجنرال، يُلاحظ المرء صرامة التقاليد والأعراف، بحيث إنها تبدو استنساخًا من أخلاق وأعراف البلاط الملكي السابق".

وكانت عقوبة الإعدام عقابًا شمل نطاقًا واسعًا من الجرائم. فبُعيد دخول مصر، أبلغ الجنرال كليبر *Kléber* الجنود والبحارة معًا، أن بيع سلعٍ مثل الزي الرسمي للجيش، والأسلحة لسكان الإسكندرية يُعد جريمة خطيرة من شأنها أن تعرض مرتكبها لعقوبة الإعدام. كما أصدر بيانًا مماثلًا

= وخصوصًا إذا دبت الحشيشة في رؤسهم وتحكمت في عقولهم، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير. وأما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مُطلق الأُنثى ذهبن إليهم أفواجًا فرادى وأواجًا، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك". عجائب الآثار، ٢: ٤٣٧. (المترجم).

أعلن فيه جميع البائعين والمشترين والمتاجرين في الأشياء المماثلة، أن من يُضبط وفي حوزته شيئًا من هذا سيعاقب بالقتل الفوري".

وخدم أوغست داماس *Auguste Damas* في طاقم ضباط أركان كليبر *Kléber*، وأشار إلى هذا الإجراء السابق وغيره من الإجراءات التي تلته:

> " أعدمنا هذا المساء - رميًا بالرصاص- جنديًّا من المشاة أُدين بالسرقة عن طريق النَّقب والاقتحام. وقد سبق وأن أُدين اثنا عشر أو ثلاثة عشر آخرون على متن السفن على امتداد فترات مختلفة.... إن المحكمة العسكرية أدانت وحكمت على بيير دافو *Pierre Dafout*، البالغ من العمر ٢٨ عامًا، من مواليد آجين *Agen* بهوت غارون *Haute-Garonne*، من الفصيلة الرابعة/مدفعية، بالسجن المشدَّد مدة عامين، لأنه هدَّد رئيسه لفظيًّا وبالإيماءات أيضًا، إضافةً إلى ذلك، فقد امتدت يده بالاعتداء على عريفٍ من الحرس أثناء إلقاء القبض عليه، كما تطاول لفظيًّا على جنود الحرس أجمعين".

ثمَّ عقوبةٌ أقل قسوة، بيد أنها كانت أكثر إذلالًا، سجلها الضابط الفارس: "شُهِّر باثنين من اللصوص اللذين سرقا بعض التمور، بالتجوال في المخيم مرتين يوميًّا، وقد تكلَّلا /٢٥ ببعض سباطات التمر المسروقة، مع ارتداء ملابسهما مقلوبة، كما وشم ظهريهما بنقش "لص"*MARAUDEUR*".

وسجل بيرنويه *Bernoyer* تحقيقًا موسعًا جرى في جريمة قتل مزدوجة ووحشية:

"وقعت جريمة قتل مروعة في ليلة ٨-٩ من يناير، فقد عثر على جثة امرأة تركية مع خادمتها في المنزل حيث كانتا تعيشان. ولم يلبث المحققون أن عثروا - في مسرح الجريمة- على زرَّين لمعطف عسكري فرنسي ينتمي إلى الفوج الثاني والثلاثين، مع قطعة يسيرة من القماش الأزرق في حجم عملة معدنية من نوع الستة فرانكات، يبدو أن إحدى الضحيتين قد مزقتها بأسنانها إبَّان مقاومتها للقاتل.

وعلى الفور صدرت الأوامر لقائد الفوج الثاني والثلاثين بجمع جنوده والتحقيق في الواقعة، والعمل على سرعة اكتشاف الجاني، وذلك بمساعدة تلك الأدلة التي عُثر عليها في مسرح الجريمة.

وبناءً على تقرير عريف إحدى فصائل الفوج فقد لُوحظ غياب أنطوان دوبوا *Antoine Dubois* وبيير ستيف *Pierre Steve*، من الرماة، عند النداء على الأفراد إبان الاصطفاف المسائي ليلة وقوع الجريمة. ومن ثم فقد فحص المحققون متاعهما ومعداتهما، وقد وجد زِرَّان مفقودان من ذيل معطف أنطوان دوبوا *Antoine Dubois*، كما كان الزران المفقودان مطابقين تمامًا للزرَّين اللذين عثر عليهما في مسرح الجريمة. أما بالنسبة لقطعة القماش، فقد جاءت بالتأكيد من الكُم الأيسر لمعطف بيير ستيف *Pierre Steve*. كما عثر المحققون على ما يعزز اتهام الجنديين بارتكاب تلك الجريمة النكراء، فقد كان هناك آثار عَضةٍ حديثة في يد ستيف حيث موضع قطعة



الجنود الفرنسيون يتصدون لهجوم أهالي القاهرة إبان ثورة القاهرة الأولى. لاحظ انخراط العُلماء في القتال جنبًا إلى جنب مع الأهالي.

القماش المفقودة تمامًا. ومع احتشاد مثل هذه الأدلة المقنعة، تم تحويل الجنديين إلى المحكمة العسكرية، التي أدانتهما وحكمت عليهما بالسجن لمدة ثلاثة أشهر.

وبعد أن أُبلغ بونابرت بهذا الحكم - وفي ضوء وجود مثل تلك الأدلة- ثارت ثائرته، فاستدعى أعضاء المحكمة العسكرية للتشاور، وبعد مناقشة مصحوبة باللوم الحاد، انتهت بطرد الجنرال أربعة من القضاة الأكثر نفوذًا في المحكمة العسكرية، وتم التحفظ على سرية الجنديين المدانين كلها تحت السلاح. وأخيرًا انتهى الأمر بإعدام الجنديين رميًا بالرصاص في حضور جميع الجنود"(١).

---

(١) سرد الجبرتي خبر تلك الجريمة، فأرخها بأواخر رجب، واستكمل آخر حلقاتها =

٢٦ / أما عن العقوبات التي نالت الثوار من السكان المحليين فكانت أشد قسوة. فقد وقعت عدة ثورات اندلعت في القاهرة ضد الفرنسيين. وفي إحدى رسائله ذكر بيرنويه *Bernoyer* أن هناك عقابًا سِريًّا نال عددًا من الثائرين: "لقد جرى خلال الليل اعتقال عدد من المتمردين. وقد تيقنت من نبأ اعتقال أكثر من ألفي تركي، ومن بينهم عددٌ من العناصر الأكثر

= في حوادث مستهل شعبان سنة ١٢١٣هـ بقوله: "في ليلة السابع والعشرين منه [أي رجب] أتت جماعة [من الفرنسيس] إلى دار الشيخ محمد بن الجوهري الكائن بالأزبكية بالقرب من باب الهواء، نخلعوا الشباك المطل على البركة ودخلوا منه وصعدوا إلى أعلى الدار، وكان بها ثلاثة من النساء الخدامات وابنة خدامة أيضًا وبواب الدار. ولم يكن رب الدار بها ولا الحريم بل كانوا قد انتقلوا إلى دار أخرى -لما سكن معظم العسكر بالأزبكية- فاستيقظ النساء وصرخن فضربوهن وقتلوا منهن امرأة، واختفت البنت في جهة وعاثوا في الدار وأخذوا متاعًا ومصاغًا ونزلوا. واستيقظ البواب فاختفى خوفًا منهم، فلما طلع النهار وشاع الخبر وكان ساري عسكر غائبًا، فلم يقع كلام في شأن ذلك. فلما قدم من سفره ركب مشايخ الديوان وأخبروه، فاغتم لذلك وأظهر الغيظ، وذمَّ فاعل ذلك لما فيه من العار الذي يلحقه، واهتم في الفحص عمن فعل ذلك وقتله.... واستهل شهر شعبان المعظم بيوم الثلاثاء. وفيه قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة. وقيل إنهم من المتسلقين على الدور". انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، ٢: ٢٤٢-٤٣. وبغض النظر عن الاختلافات الواضحة بين روايتي بيرنويه والجبرتي حول عدد المجني عليهن (قارن الجبرتي، مظهر التقديس، ١: ٢٣٢. حيث يتحدث الجبرتي بصيغة مبهمة عن عدد من القتلى من النساء وليس عن قتيلة واحدة بقوله: "فاستيقظ النساء وصرخن فضربوهن العسكر وقتلوهن")، وعدد الجنود الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام رميًا بالرصاص، فإن التفاصيل إجمالًا تبدو واحدة. كما أن روايتي بيرنويه والجبرتي تتطابقان في تاريخ وقوعهما. فقد وافقت ليلة التاسع من يناير عام ١٧٩٩ غُرة شعبان من عام ١٢١٣هـ. (المترجم).

خطورة. ومن ثم فقد صدرت الأوامر بنقلهم جميعًا إلى القلعة تحت جُنْح الظلام، حيث قطعت رؤوسهم واحدًا تلو الآخر.... وفي ظلمة الليل الحالكة، ألقينا بجثثهم في نهر النيل، مع اتخاذ أكبر قدر من الاحتياطات اللازمة، حتى يبقى أهل المدينة على جهل بهذه العدالة الصارمة".

ولعل السلوك الأكثر انتهاكًا لتلك العدالةِ قد جاء مع اغتيال الجنرال كليبر *Kléber* في الرابع عشر من يونيو من عام ١٨٠٠. حيث ذكر لاڤال *Laval* ما نصه:

> "في السابع عشر من يونيو خُوزق هذا التعس بعد أن أُحرقت يده - التي سددت الطعنة للجنرال- على الفحم، هذا بالإضافة إلى إعدام ثلاثة من شركائه في الجريمة بقطع رؤوسهم[١]، وفي الوقت والمكان نفسه الذي خُوْزِق فيه القاتل. وثم قاضٍ كان بمثابة الشريك الرابع للمتهمين، وقد قدَّمنا له الرحمةَ مقابل المال، فطالبناه بافتداء نفسه بدفع ستمائة ألف ليڤر *Livre*، بيد أنه استغرق وقتًا طويلًا في جمع

---

(١) وهم: محمد الغزي، وعبد الله الغزي، وأحمد الغزي، وقد أدانتهم المحكمة بتهمة التستر على الجاني وعدم الإبلاغ عنه بعدما أخبرهم بنيته في قتل ساري عسكر [أي القائد العام]، وصدر ضدهم حكم بقطع الرأس دون عقوبة [أي بدون إيقاع تعذيب بدني عليهم قبل قتلهم بقطع الرأس]. فيما صدر حُكم غيابي على المدعو عبد القادر الغزي -الذي فر من مصر قبل إلقاء القبض عليه- بقطع رأسه أيضًا. انظر: مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بإعلام ومحاكمة سليمان الحلبي قاتل ساري عسكر العام كلهبر، (القاهرة، مطبعة الجمهور الفرنساوي، السنة الثامنة من إقامة الجمهور [١٢١٥هـ/١٨٠٠م])، ٧٥؛ قارن: الجبرتي، عجائب الآثار، ٢: ٣٥٨-٩١؛ مظهر التقديس، ٢: ٤١٧-٢٠. (المترجم).

هذا المبلغ. وفي المقابل تلقى خمسين سوطًا كل صباح حتى أتم دفع المبلغ بأكمله"(١).

• الحشرات والأمراض:

لم يكن المناخ ولا السكان هو ما جعل الفرنسيين يشعرون بانعدام الراحة في مصر فحسب. فقد اشتكى العريف كايو *Cailleux* من كثرة الحشرات والهوام:

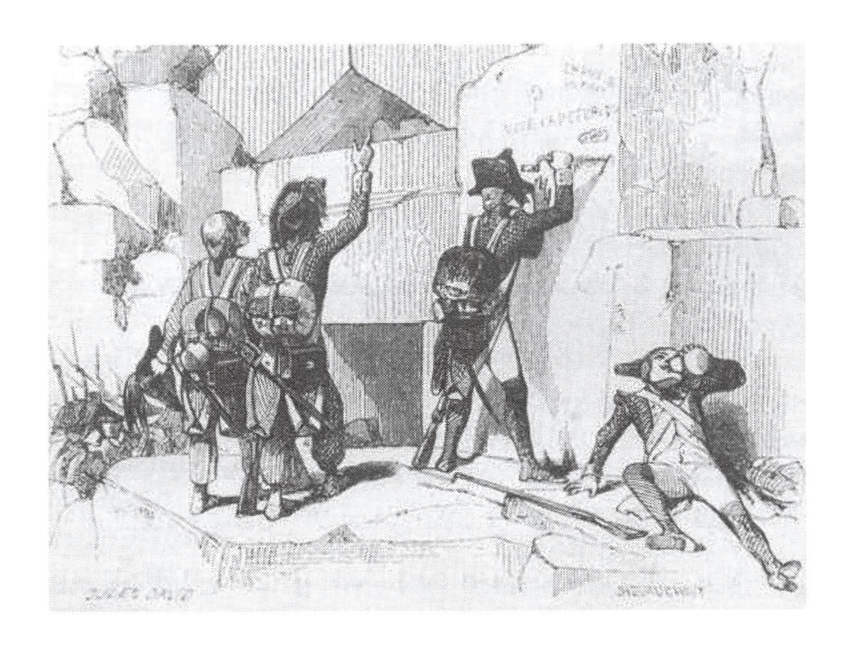
"كان هناك عددٌ كبير من الحيوانات والحشرات المزعجة، فقد رأينا الذئاب والثعالب والخنازير البرية.... والثعابين الكبيرة المنتشرة في كل مكان، فقد وجدنا آثار جلدها المنسلخ عنها في كل مكان في الصحراء.... ورأينا أيضًا عددًا كبيرًا من القرود المروَّضة التي دأبت على الرقص في الشوارع والميادين العامة. لقد كان بعضها كبيرًا في حجم كلاب المزرعة في قريتنا. أما الفئران فقد انتشرت بأعداد هائلة في كل بيت تقريبًا، وهي تسرق منك كل ما

---

(١) في الواقع فإن "مصطفى أفندي البرصلي" كان خطاطًا ومعلمًا للأطفال في الكتّاب ولم يكن قاضياً قط. كما ثبتت براءته من التهمة المنسوبة إليه - بالاشتراك في قتل كليبر بالتستر على الجاني- أمام اللجنة التي انتدبت للتحقيق في واقعة قتل كليبر. فقد تبين أنه عاشر سليمان وصادقه وعلمه الخط في زيارة سابقة لسليمان إلى مصر عن تلك الزيارة التي قتل خلالها سليمان ساري عسكر. ومن ثم كانت براءة البرصلي غير مشروطة، ولم يسجل نص الحكم عليه مطالبته بأي غرامة كانت، بل ورد فيه عبارة: وهو مطلوق [أي مطلق السراح] إلى ما نوى". انظر: مجمع التحريرات، ٧٦. (المترجم).

استطاعت حمله، والريف والصحراء يغُصّان بها. كما أن البراغيث والناموس في كل مكان، وفي كل ليلة يلتهمونك التهامًا فيمنعوك لذيذ الرقاد. لقد عانى الجيش الفرنسي إلى حد كبير من الحشرات أثناء وجوده في مصر".

عانى موران *Morand* من الكَدر نفسه في ليال كثيرة اضطر فيها إلى المبيت في العراء وتحت النجوم:



كشف دينون *Denon* النقاب عن أن الجنود لم يشاركوا العلماء شغفهم بالاكتشاف بقوله: "أما بالنسبة لجنودنا المستهترين... فقد تخيلوا أن مراد بك (أحد كبار قادة المماليك) كان يمتلك جملًا أبيض محملًا بالذهب والجواهر. ولم يكن ثم شيء يشغلهم إلا الحديث عن مراد بك وجمله المزعوم هذا!".

"إضافة إلى عدم الراحة، فقد هاجمت فراشي الرقيق - الملقى على الأرض- الضفادع والعقارب وجميع أنواع الزواحف والحشرات المثيرة للاشمئزاز من تلك الأنواع التي تغشى الحدائق الرطبة. إذا شعرت لحظة واحدة بالراحة، فلن ألبث أن أشعر بها تغطي جسدي ووجهي مجدداً. إن أقل حركة مني من شأنها أن تجعلها تهرب، ولكنها لا تلبث أن تتجمع حولي من جديد، ويبدو أنها تعهَّدت بألا تسمح لي بلحظة سلام واحدة قبل تجديد اعتداءاتها وقتالها المحموم على جسدي".

وذكر لاڤال *Laval*:

"لقد لدغت العقارب عدداً من الجنود، وهو أمر شائع الحدوث في مصر، وخاصةً في أنقاض الإسكندرية القديمة، حيث عسكرنا. ومع ذلك، فهي ليست قاتلة كتلك العقارب السامة في أوروبا. ولا يحتاج المرء إلا إلى سحق العقرب بالضغط عليه بالموضع نفسه الذي لُدِغ فيه، وهو إجراء يكفي للشفاء / وتسكين الإحساس بالألم في غضون لحظات قليلة. إضافة إلى ذلك فقد صنعنا دهاناً لتخفيف الألم، وكان وسيلة ممتازة في مثل تلك الأحوال".

٢٧

ومع الحشرات جاءت الأمراض، خصوصا الطاعون الدُّبلي *bubonic plague*، والذي كانت ضراوته تشتد في أوقات مُعينة من السنة. حيث اعتقد الكثيرون أن ارتداء ملابس المصاب بالمرض هو سبب العدوى.

فقد ابتلي أحد رفاق سانجل فيريير *Sangle-Ferriere* من قوة خفر السواحل والأنهار - وعلى متن إحدى القوارب المسلحة تسليحًا خفيفًا- بالمرض الذي شُخِّص فورًا على أنه الطاعون. وتوضح رواية فيريير تلك التقنيات الطبية البدائية في هذا العصر:

"... أمرت رجالي ألا يتبعوني، وركضتُ إلى غرفة صغيرة كانت تأوينا جميعًا. حيث كان ثمة مشهد فاجعٌ ينتظرني! لقد كان صديقي دوبويسون *Dubuisson* مُستلقيًا على ظهره، فاقدًا الوعي تقريبًا. فهممتُ بالمغادرة طلبًا للنجدة، عندئذ وبصوت واهٍ يتهدج حزنًا وألمًا، سألني بعض الماء ليروي ظمأه. انطلقت بحثًا عن الماء، وعُدت إليه به، فشرب بنهمٍ من يدي، وعندما ارتوى، لم يزدْ على أن قال: "إنِّي أحترق"، ثم استلقى مرةً أخرى على الأريكة بلا حراك، وأشار إليَّ بيده أن اذهب بعيدًا.

غادرتُ الغرفة من فوري، وذهبت بحثًا عن طبيب. وقد رفض الأطباء جميعهم فحصه، فاضطررت إلى إجبار الطبيب دُوبوا *Dubois* تحت التهديد على أن يتبعني. وعند وصولنا إلى الغرفة، وجدنا دوبويسون *Dubuisson* وقد فقد وعيه بالكلية. فاقترب الطبيب بحذر نحو سريره، ورفع الغطاء عنه بطرف عصاه، ثم رفع عنه قميصه، فرأينا دمامل هائلة وقد انتشرت في جميع أنحاء فخذه، فقفز الطبيبُ إلى الخلف فزعًا وهو يصرخ: "الويل لنا، إنه الطاعون". ثم طلب بعض الخل وفرك به نفسه. وبمجرد أن ذكر الطاعون أمامهم، ألقى

البحارة بأنفسهم في البحر دون تردد. ولم أجد بُدًّا من تركه والذهاب لإبلاغ المستشفى لإسعافه. فظل دوبويسون *Dubuisson* على متن السفينة وحده، وعندما عُدت بصحبة الطاقم الطبي وجدنا دوبويسون *Dubuisson* ينتظرنا على سطح السفينة. كان قد استعاد وعيه من تلقائه، وبشجاعة نادرة مع جهد فائق، كان قد نهض وارتدى زيه العسكري. ولوَّح لهم أنه لا يريد لأحد أن يتقدم منه أو يلمسه / ثم نزل وحده على متن قاربهم. تابعتهم عن قُرب قدر الإمكان، ولم أتركهم إلا على أبواب المستشفى، مُقدمًا حقوق الصداقة على أي اعتبار آخر. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، جلست عند بوابة المستشفى في انتظار أي أخبار عنه... فأبلغوني بوفاته".

٢٨

• **الأرض المقدسة:**

كان لدى معظم الجنود الفرنسيين قدر من المعرفة الأساسية عن فراعنة مصر من خلال قراءة الكتاب المقدس. ومثلُهم في ذلك مَثَلُ السائحين في العصر الحديث، توافد الفرنسيون على أهرامات الجيزة لمشاهدتها، وكتب لاڤال *Laval* قائلًا:

> "هذه النصب الحجرية العملاقة تُعد من عجائب الدنيا السَّبع في العالم... فهي مبنية من قطع الحجارة الكبيرة التي رُصَّت بمهارة فائقة. لقد قِسْتُ أبعاد الهرم الأكبر ووجدت أن طول الضلع الواحد يبلغ نحو مائة قامة *toises*، وهذا يعني أن مساحتها نحو أربعمائة قامة مربعة.... إننا ندلف إلى داخل الهرم من خلال بوابة، طمرتها الرمال تقريبا".



أحد الرماة من الجنود الفرنسيين يضيف قليلًا من عنده على تلك النقوش الهيروغليفية. لا يزال بالإمكان رؤية العديد من كتابات الجنود الفرنسيين على جدران المعابد المصرية حتى يومنا هذا.

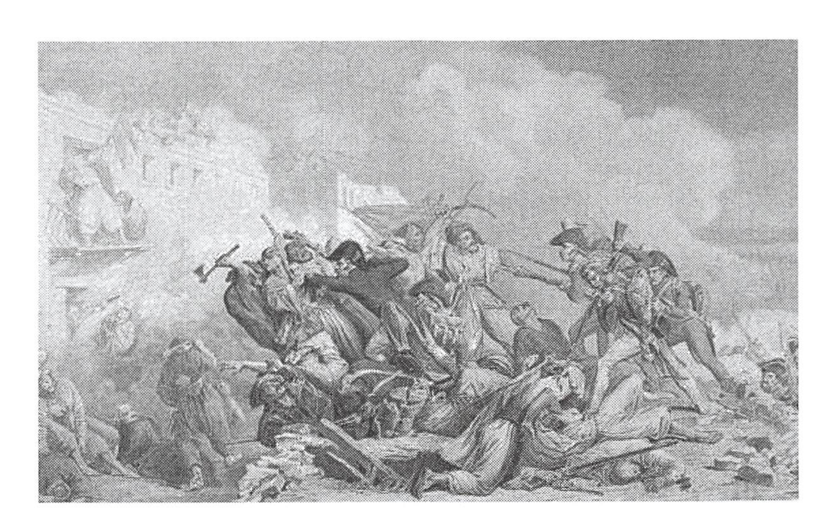
ووصف مواريه *Moiret* الهرم من الداخل:

"على المرء أن ينزل إلى أسفل لمدة خمس دقائق تقريبًا، ثم عليه أن يصعد مرة أخرى المدة الزمنية نفسها للوصول إلى غرفة تسمى "غرفة الملكة"، ومساحتها نحو ٢٠ قدمًا مربعًا، وقد شُيِّدت بإحكام، بيد أن رائحة الهواء قد لا تشجعك على المكوث هناك فترة طويلةً. ويسود الاعتقاد بأن تلك الغرفة قد شُيِّدت بهدف دفن جثث الملكات المصريات فيها. تركنا هذه الغرفة، وواصلنا الصعود مدة سبع إلى ثماني دقائق عبر سلسلة من الدهاليز، للوصول إلى غرفة تسمى "غرفة الملك". إن الوصول إلى هناك أمر شاق للغاية، وهذه الغرفة في نفس حجم الغرفة السابقة تقريبًا، بيد أن هناك تابوت من الجرانيت، تبلغ أبعاده ستة أقدام طولًا مع عرض وارتفاع ثلاثة أقدام. وعلى ما يُشاع بين الناس، فإن هذا هو مكان دفن جثث ملوك البلاد. وأخيرًا، فقد كانت هناك هوة سحيقةٌ مجهولة العمق. ولاختبار عمقها أطلق أحد الجنود طلقة من مسدسه فيها، وقد دوى الصوت لفترة طويلة جدًّا في جنبات الهرم من الداخل، بحيث ظننا أن تلك الهوة تؤدي إلى كهوف واسعة".

أما أولئك الذين ساروا مع الجنرال ديزيه *Desaix* إلى صعيد مصر، فقد تجمَّدُوا عندما وقعت أبصارهم للمرة الأولى على أنقاض مدينة طيبة *Thebes* القديمة [الأقصر]، كتب دينون *Denon* قائلًا:

"بحلول الساعة التاسعة واصلنا السير حثيثًا بمحاذاة نهاية سلسلة من الجبال، ثم اكتشفنا فجأة موقع مدينة طيبة القديمة عبر مداه بأكمله... تلك المدينة التي طالما لفَّها حجاب من الغموض والضبابية عبر العصور، والتي تقبع بها تلك الآثار الهائلة التي تفوق الخيال. لقد تجمد الجيش كله فجأة، ووقف مذهولًا على إثر رؤية تلك الأنقاض المتفرقة، وعندها لم يتمالك الجنود أنفسهم، فطفقوا يصفقون بأيديهم فرحين، وكأن / الهدف النهائي من ذلك العناء الكبير قد تم إنجازه بالفتح الكامل لمصر عبر الاستيلاء على هذه الأنقاض الرائعة للمدينة العتيقة".

٢٩



المشاة من حملة البنادق من الفوج الحادي والعشرين إبّان الهجوم على قلعة أبنود *Benouth* ٨ مارس ١٧٩٩.

كما نظَّم بونابرت رحلة استكشافية إلى السويس[1] للوقوف على جدوى تلك الفكرة القديمة الرامية لربط البحرين المتوسط والأحمر بشق قناة تربط بينهما، ومدى قابليتها للتنفيذ. إبّان هذه الرحلة اسْتَلهم دوجيرو *Doguereau* نظريته الخاصة في تفسير إحدى المعجزات التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس. فبعد العثور على أطلال القناة القديمة، عبَر بونابرت والوفد المرافق له البحر الأحمر، ولكن عند عودتهم ليلًا وجدوا أن المدَّ قد ارتفع بنسبة ثلاثة أقدام. فعبر بونابرت البحر قبل حراسه، وعبثًا حاول دوجيرو *Doguereau* العبور في إثره فلم يحالفه الحظ مطلقًا، بل أضحى في وضع متأزم وجدّ خطير:

> "حاولت العبور ثلاث مرات، وقد ضللت طريقي، ووجدت أن منسوب المياه أعلى من جوادي. وأخيرًا وعند منتصف تلك المخاضة تعثَّر جوادي في الماء. فتخليت عنه على الفور وأخذت في السباحة، ووصلت إلى الضفة الأخرى، كما وصل جوادي في الوقت نفسه تقريبًا... كنا سعداء للغاية؛ لأن مصيرنا لم يكن مؤسفًا كمصير فرعون وجنوده. لقد نجا موسى النبي لأنه كان يعرف البحر الأحمر جيدًا بما في ذلك أوقات المد والجزر، فمرّ مع بني إسرائيل في الوقت المناسب. ولعل فرعون قد حاول محاولة خرقاء، فعبر عندما ارتفع المد، أو عبر من المكان الخاطئ".

وخلال الحملة على الشام، خاض كثير من الفرنسيين، بما في ذلك كايو *Cailleux*، في الحديث عن المشاهد بالأراضي المقدسة:

---

(١) قارن: الجبرتي، عجائب، ٢: ٢٣٧. (المترجم)

"ذهبنا باتجاه جسر يعقوب، الذي يقع بين بحيرة ميروم وبحر الجليل.... على الجانب الآخر من الجسر هناك سفح جبل لبنان الشهير، ذي القمة المغطاة دائمًا بالثلوج. حيث يظهر هذا الجبل العتيق ملائمًا تمامًا لتلك الأطلال القديمة المحيطة به.... وبما أن الكتاب المقدس يخبرنا، أن سفينة نوح النبي قد رست على هذا الجبل لبعض الوقت. فإن هذا كان أعلى مستوى رأيته حتى ذلك الحين، كما أنه كان أبعد مكان سافرتُ إليه.... أما عن الناصرة فهي مجرد قرية صغيرة، تقع عند سفح الطرف الجنوبي من الجبال[1]. شاهدناها مليًّا / ٣٠ وقد بُني هناك مؤخرًا دير يدعى دير الكبُوشي *Capuchin monastery*، وهو دير يسكنه الرهبان الأوروبيون. وثمَّ كنيسة قد بنيت فوق القبر والكهف... دخلناها، وتلمَّسْنا طريقنا داخلها بواسطة المشاعل.... وهم يزعمون أنه في هذا الكهف تجلَّى جبرائيل الملاك لمريم العذراء، وأخبرها أنها ستكون أمًّا للمُخلِّص.

• **الإحلال والتجديد:**

فقدت الحملة كثيرًا من المعدات الثقيلة خلال إغراق الأسطول في معركة خليج أبي قير. ولمعالجة هذا الوضع الحسّاس والمشكلات الناجمة عنه، قام نيكولاس كونتي *Nicholas Conte* (مخترع المنطاد) ببناء تسع

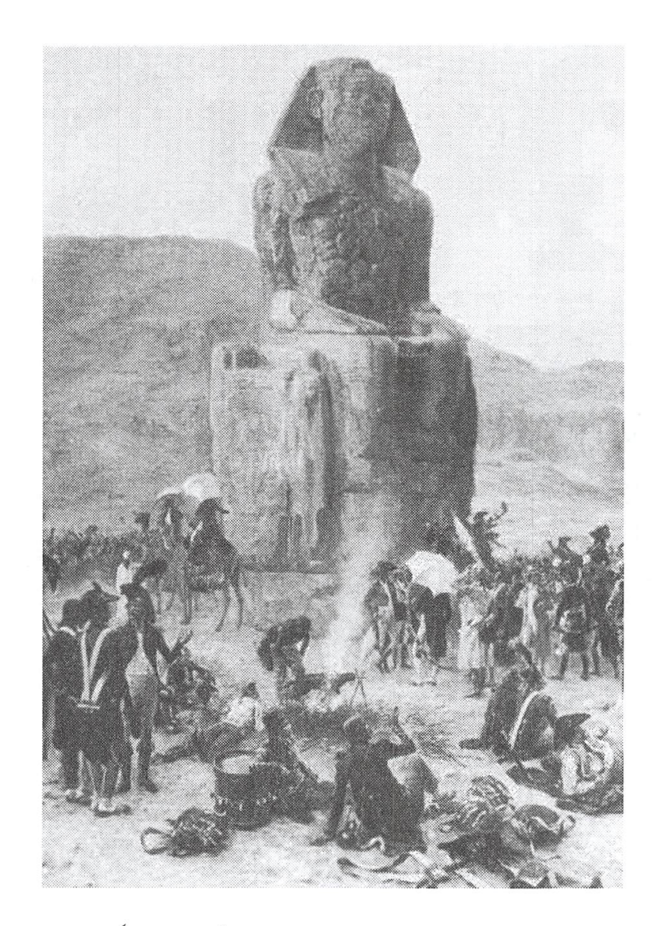
(١) الإيماءة إلى جبل السايح الذي تقع الناصرة عند سفحه، وهو الطرف الأخير المتفرع من سلسلة جبال لبنان الغربية. (المترجم).

ورش في القاهرة لتصنيع الاحتياجات الرئيسية للجيش. وفي تلك الأثناء صدرت تعليمات بونابرت للعلماء بالنظر في سبل الحفاظ على إمدادات الجيش الأساسية كالخبز والبارود المصنَّع من الموارد المحلية.

ويتجلى لنا عند مقارنة قوة الجيش الأولية: (نحو ٣٤,٠٠٠ رجل)، تخلَّف منهم نحو ٤,٠٠٠ رجل في مالطا، بينما وصلت الخسائر في الرجال إلى نحو ١٥,٠٠٠ رجل (بين قتيل في المعارك أو ضحية للأمراض والأوبئة). وبين عدد الرجال الذين ذكرت تقارير البريطانيين أنها أعادتهم إلى فرنسا على متن سفنها (أكثر من ٢٤,٠٠٠ جندي)، سيظهر لنا جليًّا أن الجيش الفرنسي قد عزَّز قوته بنحو ٩,٠٠٠ رجل على مدار السنوات الثلاث بين عامي ١٧٩٨-١٨٠١.

ولتحقيق ذلك، احتال الفرنسيون بتجنيد سكان البلاد ريثما تصل التعزيزات من فرنسا. فبعد معركة خليج أبي قير، كان هناك العديد من البحارة من دون سفن، وقد تحولوا تلقائيًّا للخدمة في سلاح المشاة، فأرسلوا للخدمة في فرق الجيش القائمة بالفعل، أو للخدمة في التشكيل الجديد الذي أطلق عليه اسم فوج البحارة *Légion Nautique*. بينما أَرسل كليبر *Kléber* نحو ٣٦٠ بحارًا منهم للانضمام إلى الفوج الثاني والستين، في حين تُركت بقيتهم في عهدة القبطان مارتينيه *Martinet*. وأشار دوماس *Dumas*:

> "نظم الجنرال منهم [أي البحارة] سرايا من المدفعية والرماة... بحيث ضمَّ لكل سرية من رجال البحرية السابقين مهندسًا عسكريًّا وبعض رجال الاستطلاع وأربعة من الرماة،



تمثال ممنون. ربما لم يكن بمقدور علماء الحملة أن ينجزوا شيئًا مما قدموه في مصر من دون تلك الحماية المبذولة لهم من قبل الجيش.

فشكّلوا في مجموعهم قوة بلغت ستمائة رجل. كما نقل إليهم ثلاثة ضباط برتبة ملازم من الفوج الحادي عشر، وواحدًا من الفوج الثاني والثلاثين ليكونوا قوادًا لبعض سرايا البحارة. كما ترك الجنرال للقبطان مارتينيه *Martinet* الحرية في اختيار مساعديه، ومساعدي مساعديه من بين ضباط البحرية



عزز الفرنسيون قواتهم من حيث أمكنهم ذلك. ثمَّ جندي يوناني (إلى اليسار)، وجندي قبطي (إلى يمينه) يحيط بهما جمل عربي وفارسٌ شامي.

السابقين، كما ترك له الحرية أيضًا في اختيار قائدين لقيادة سريتين، إضافة إلى الحرية في اختيار الجنود من المهندسين العسكريين والاستطلاع لتعزيز تلك السرايا".

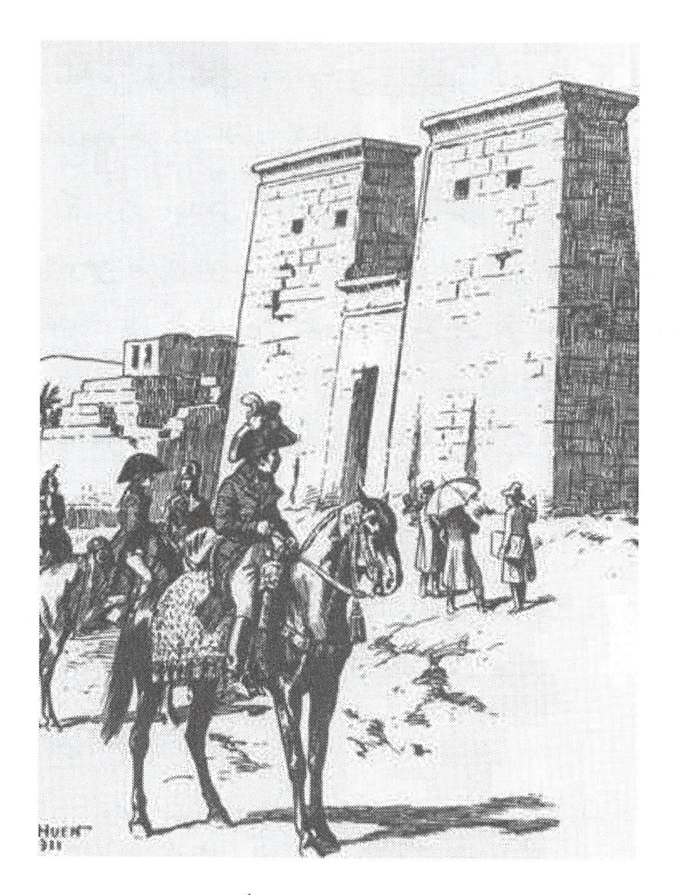
ويروي سانجل- فيريير *Sangle-Ferriere* - الذي فضَّل أن يبقى بالخدمة في سلاح البحرية- : "وبغض النظر عن سن التجنيد الملائم، فقد انضم بحار كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا إلى هذا التشكيل الجديد،

فكان واحدًا من قوة بلغت ٢,٠٠٠ رجل ارتدوا الزي العسكري المكون من المعطف الأحمر ذي الصدرية الزرقاء، والسراويل البيضاء.

٣١ / كما زُود مهندسو القوات البحرية أخيرًا ببضعة زوارق خفيفة التسليح... وعن طريق الوسائل التي أعددناها لحماية السواحل أُقيمت نقاط اتصال ثابتة، على الرغم من الدوريات الإنجليزية المستمرة... وكانت زوارقنا مسلحةً وجاهزة للاشتباك الفوري، كانت في نصف حجم السفينة، كما كان لها شراعٌ وحيد. وقد حملت مدافع من البرونز سبق وأن استولينا عليها من ترسانة مالطة، بالإضافة إلى أربعة مجانيق *perriers* ثُبِّت اثنان منها على جانبي الزورق. كما تم تسليحنا بالكثير من البنادق والمسدسات والحراب والبُلط. ومن ثم فقد بلغت قوة الزورق أربعة وعشرين بحارًا، مع ضابط مدفعية، ونقيب، بالإضافة إلى القبطان ومساعده".

وسجل الضابط الفارس ما نصه:

> "وتعويضًا لجنود المشاة لم يكن ثَمَّ بد من تجنيد السكان المحليين، فقد أنشأ بونابرت في الإسكندرية فوجًا من الجنود المتطوعين من رجال الإنكشارية "*Janissaries*" السابقين، فقد بات واضحًا أن القائد العام يريد استخدام كل الموارد الممكنة لتعزيز قوة الجيش، فقام بدمج شباب المماليك في أفواجنا بمعدل ٩ منهم لكل كتيبة، و ٤ لكل سرب. أما هؤلاء الذين تقل أعمارهم عن أربعة عشر عامًا فقد انضموا إلى جُوقة قارعي الطبول. وقد حرصنا على إلباسهم الزي الرسمي للقوات الفرنسية، كما تلقوا أوامرهم باللغة الفرنسية. ومن الآن فصاعدًا أصبح لدينا مجندين يتمتعون بالرشاقة والقوة".



الجنرال ديزيه *Desaix* في إدفو. سار جنوبًا على امتداد النيل مطارِدًا للمماليك المتمردين. وكتب ميو *Miot* قائلًا: "ذهبت قواتنا إلى صعيد مصر، وكثيرًا ما اكتشفنا أروع الآثار من العصور القديمة". رافق الفنان *Denon* ديزيه في أسفاره، حيث زارا معًا بقايا الآثار الفرعونية في طيبة ودندرة، حيث استقرت أروع الآثار الإنسانية من العصور السحيقة.

٣٢ / وبعد ثورة القاهرة الثانية، لاحظ لاڤال *Laval* ملاحظة - ذات مغزى- تتعلق بعلو كعب المماليك، الذين سيرتقون في سلك العسكرية الفرنسية، وستطبق شهرتهم الآفاق في الحرس الإمبراطوري لنابليون لاحقًا:

"كان هناك بعض المماليك من جنود إبراهيم بك الذين خدموا في صفوفنا. لقد حافظنا عليهم وشكَّلنا منهم فيلقًا منحناه الاسم الإغريقي بارتيليمي *Barthelemy*، وهو نصير شهير ومؤيد للجنود الشجعان في التراث الفرنسي. وظل هؤلاء المماليك يدينون بالولاء للجيش، وسافر معظمهم إلى فرنسا في معية الجيش المغادر عند جلائنا عن مصر".

أما الضابط الفارس فكان أكثر توجُّسًا ورِيبةً في أمر هؤلاء الأجانب الذين أقسموا القسم الرسمي الفرنسي وانضموا للخدمة في صفوف الجيش: "إن المالطيين الذين رافقوا الحملة - بعد مغادرتنا ڤاليتا- شكَّلوا فيلقًا تحت إمرة المواطن ماك شيدي *Mac-Sheedy*، لكنني أشك في أنه سيبلي بلاء حسنًا مع مثل أولئك الناس، فباستثناء القليل جدًّا منهم فهم لصوص وجبناء وكسالى".

وعلى صعيد آخر فقد استغرق حل مشكلة إيجاد عدد كاف من الجياد لسلاح الفرسان أشهرًا عديدةً لحلِّها. فالضابط الفارس نفسه سجل مصادرةَ الحملة للخيل في رشيد *Rosetta* والمنوفية *Menouf* والغربية *Garbieh*:

"... وسرعان ما ضموها [أي تلك الجياد المصادرة] للجيش، فدخلت للخدمة في سلاح الفرسان وجنود السَّواري، اعتمادًا على أحجامها وأعمارها. إن مشيةَ تلك الخيول جدُّ مختلفة عن الخيول الأوروبية التي نعرفها، وهي تركض بسهولة جدًّا، حتى إن الفرسان أساءوا استخدامها فأرهقوها عدوًا، حتى اضطروا القائد العام إلى أن يصدر أوامره بإرغام أي

فارس يُضبط راكضًا بجواده - دون مبرر يدعوه إلى هذا- على الترجُّل في التوِّ واللحظة، والتنازل عن الجواد للفارس التالي الذي لم يزل منتظرًا دوره في الحصول على جواد جديد.

ولم يكن بإمكان سلاح الفرسان إجراء استعراض كامل أمام الجنرال حتى السابع والعشرين من نوفمبر من عام ١٧٩٨:

"تفقَّد الجنرال بدقةٍ الخيول والأسلحة والزي الرسمي للفرسان، وبدا في منتهى الرضا.... ثم أمر الجنرال بإجراء العديد من المناورات. ويجب علي أن اعترف بأن تلك المناورات لم تنفذ بالدقة المعهودة. فطبيعة الخيول العربية لا تُعين على التنفيذ الدقيق لتلك الحركات المطلوبة في المناورة. ومع ذلك، فقد بدا لنا أن الجنرال راضٍ تمامًا، وأن فرساننا لم يفقدوا كثيرًا من لياقتهم خلال تلك الأشهر الطويلة التي لم يعتلوا فيها ظهر جواد قط. وبمجرد صدور الأوامر بإنهاء هذا الاستعراض - الذي كان / مثارًا للإعجاب- أمال الفرسان رؤوسهم إلى رؤوس جيادهم، التي انطلقت مسرعةً بهم كأنها تلتهم الفضاء التهامًا، فيما عكَست أشعة الشمس أَلَقَ سيوفهم". ٤١



لعل أكثر الابتكارات العسكرية نجاحًا بالنسبة للحملة كان حمل الجنود المشاة على ظهور الجمال العربية. فهذه الجمال قادرة على تحمل الأسفار والمطاردات الصحراوية الطويلة. لاحِظْ اعتماد الجنود الفرنسيين المتزايد على الألبسة المحلية الأكثر تكيفًا مع المناخ في مصر.

الحملاتُ والقتال

كانت الحرارة المفرطة خلال النهار، بالإضافة إلى شُحِّ المياه الصالحة للشرب هي أصعب ملامح الحياة بالنسبة لجنود الحملة، حتى بالنسبة لهؤلاء المحاربين القدامى الذين سبق لهم القتال في إيطاليا. سرعان ما اكتشف لاڤال *Laval* ذلك خلال المسيرة الأولى للجيش عبر الصحراء من الإسكندرية إلى القاهرة:

"لم نعثر على المياه قط منذ أن تركنا الإسكندرية. حيث كانت قرية بركوت *Berquet* [(١)] هي أول مكان توقفنا فيه لبعض الراحة من وعثاء المسير عبر الصحراء، كان ذلك في الثامن من

---

(١) قرية، ذكر المرتضى الزبيدي أن قومًا من العلماء قد انتسبوا إليها. انظر: المرتضى الزبيدي (أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، المتوفى ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، (الكويت، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٩٣)، ٢٧: ٦٧-٦٨. قارن أيضًا محمد رمزي الذي استند إلى ما جاء عند الزبيدي ولم يتسدل على موضعها: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤)، ١: ١٥٥. والذي يبدو من سياق حديث لاڤال أنها كانت غرب النيل بين القاهرة والإسكندرية، وعلى التخوم بين الصحراء والمعمور من دلتا النيل. (المترجم).

يوليو قرب منتصف النهار، وهناك وجدنا أربعة آبار، ومن ثم فقد شكَّلنا أربع فرق، كل تسعة آلاف رجل خُصِّصت لهم بئر واحدة للشرب منها. ومع ذلك، فإن تلك الآبار كان قد غِيضَ ماؤها وكانت على وشك الجفاف، ولم يعد بإمكاننا استخراج ذلك النذر اليسير من الماء الذي تبقى في قعرها. وكاد الظمأ يفتك بي، حتى إنني اضطررت لغمس منديلي في الطين الندي، ثم عصره في فمي لأهدئ من سَوْرة عطشي".

وبعد ثمانية أشهر تقريبًا، قاد بونابرت جيشه عبر مسيرة أشد قسوة صوب الشام. بيد أن هذه المرة كانت ذاخرةً بالوعود بالجوائز السَّنية للأشجع والأشد صبرًا على المكاره من الجنود. فيذكر الضابط الفارس:



بعض الضباط من فرقة ديزيه *Desaix* يراقبون انهماك الفنان دينون *Denon* في رسم إحدى لوحاته. وبينما خلد بعض الجنود للراحة، راح بعضهم الآخر يلهو، أو يبحث عن شيء يأكله.

"وُعِد قارعو الطبول بأعوادٍ مزينة بالفضة مكافأةً للباسلين منهم، وكان هناك ٢٥ زوجًا من تلك الأعواد للجيش بأكمله. كما كان بانتظار الشجعان من نافخي الأبواق خمسةً من الأبواق الفضية. أما رجال المدفعية - الذين تميزوا بدقة التصويب أو الشجاعة والبسالة في الدفاع عن أسلحتهم- فقد وعدُوا بخمسة عشر وسامًا على شكل قذيفةٍ صغيرة من الذهب، وكانت تثبت على الصدر عبر الأشرطة. بالإضافة إلى ٢٠٠ بندقية مزينة بالفضة كانت في انتظار الجنود والفرسان الذين يبلون بلاءً حسنًا في القتال. وأخيرًا، فقد أحاطنا الجنرال علمًا بأن هناك ٢٥ سيفًا للشرف *sabres d'honneur* ستُمنح تخليدًا لمآثر الشجاعة والبطولة الاستثنائية".

بدت هذه المكافآت قِسمةً ضِيزى قياسًا بالظروف القاسية والحرمان المتطرف اللذين واجها الجنود أثناء المسير صوب الشام، بما في ذلك العريف كايو *Cailleux*:

"بعد تجميع الحشود من الجنود، يمَّمنا صوب العريش التي كانت تبعد عنا نحو ٢٢ فرسخًا *leagues*. حيث لم نجد الماء ولا السكان خلال عبورنا الصحراء. وكان على كل جندي أن يحمل على كاهله ما يكفيه من الماء لأربعة أيام، إضافةً إلى تموين سبعة أيام من الطعام، فضلًا عن أسلحته وذخائره. وأستطيع أن أؤكد أنني ما عانيت أبدًا في حياتي بقدر ما عانيت في تلك الصحراء القاحلة، فثمَّ الجوع والعطش، فضلًا عن الحرارة الشديدة والمشقة الناجمة عن المسير خلال الصعب الوعر من الوهاد وعبر / الرمال. لقد هلك عدد من الرجال، وكان السبب الأول في هذا - وقبل كل شيء- شح المياه والظمأ الشديد".

٤٣

Infantryman, 1798



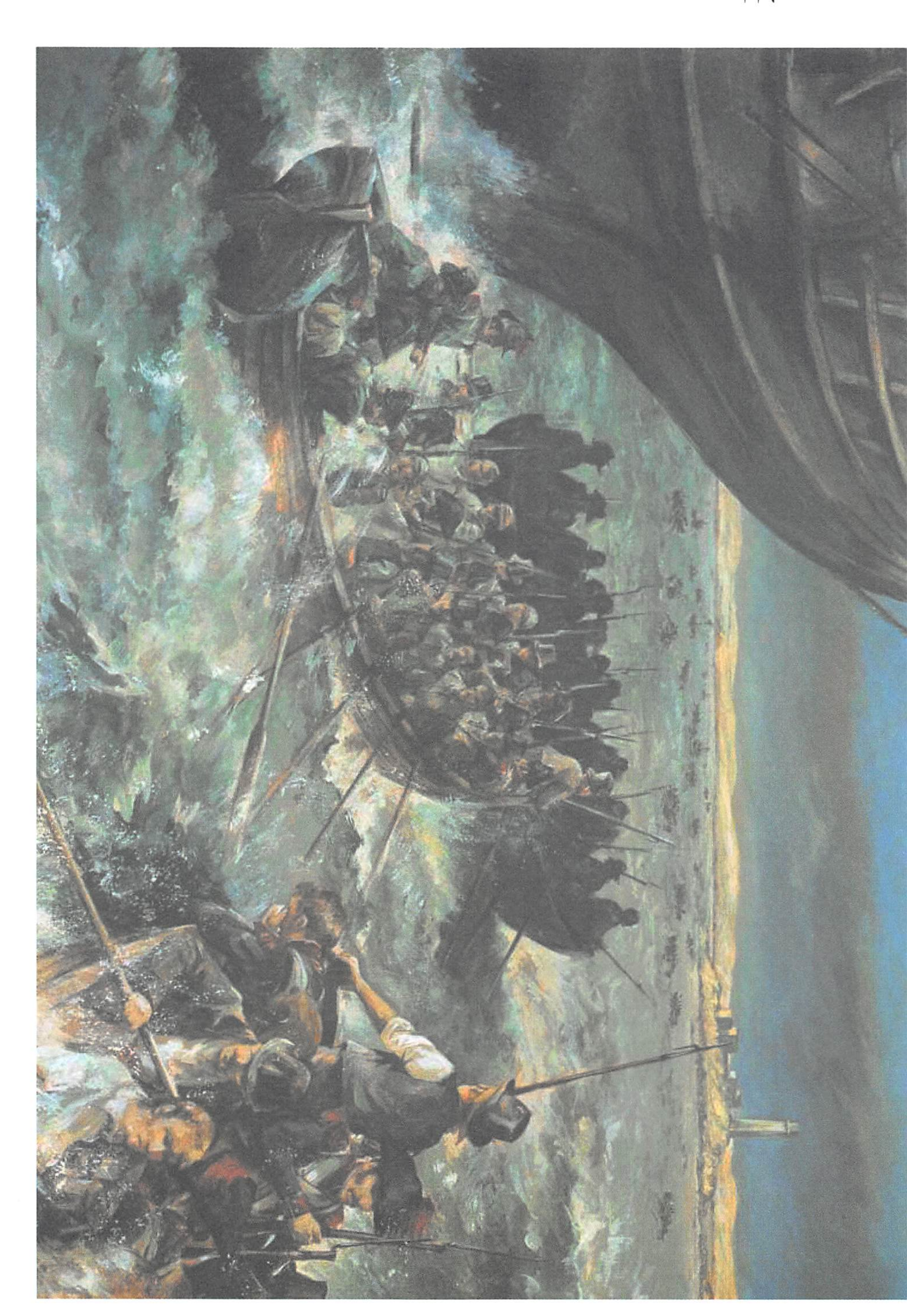
زي مشاة الجيش الفرنسي عام ١٧٩٨:

خضع زي المشاة لعدة تعديلات في مصر، في محاولات مستمرة للتكيف مع المناخ المصري وأنواع القماش المحلية المتوافرة. وقد صمم بيرنويه *Bernoyer* النسخة الأولى، ووصف ما فعله في هذا التصميم في رسالة أرسلها إلى فرنسا مؤرخة بـ ٣٠ يوليو ١٧٩٨:

"..... طلب مني [بونابرت] إعداد عدة تصاميم للزي العسكري للقوات في أسرع وقت ممكن، وذلك كي يتمكن من اختيار أحدها، شريطةَ أن تكون أكثر ملاءمةً - لهذا البلد ولهذا المناخ- من الزي الحالي للقوات. ونصحني بالتحرر وتجنب التكلُّف والبهرجة المعتادة في زي جنود الجيش. وقد اختار واحدًا من تلك التصاميم التي قدمتها له في اليوم التالي: وهو عبارة عن سترة *veste* بسيطة للغاية، مزينة بالأزار من العنق إلى الخصر، وقد روعي فيها الاستغناء عن الصَّدرية بالكلية. مع سروال قطني يتصل بجورب جلدي نصفي يغلق على الحذاء بإحكام لمنع الرمال من التسرب إلى أحذية الجنود أثناء المسير في الصحراء.... وأراد بونابرت أن يعرف مني كم يلزمني من الوقت لإنتاج هذا الزي لعشرة آلاف رجل، يمثلون أولوية ملحةً للجيش في الوقت الراهن. فأجبته بأنه سيكون من المستحيل عليّ أن أعطي تقديرًا فوريًّا، فأنا لا أعرف شيئًا عن موارد البلاد. وأخيرًا منحني الجنرال مهلة ٢٤ ساعة لإبلاغه بتقديراتي.... وبدا راضيًا قانعًا عندما أبلغته بقدرتي على تصنيع عشرة آلاف قطعة من الزي الجديد خلال خمسة وثلاثين يومًا، بمعدل يصل إلى ألفي قطعة أسبوعيًّا، فأعطاني الإذن بضم جميع الخياطين الفرنسيين والأتراك [أي المصريين] الذين أرى وجودهم ضروريًّا لإنجاز العمل.... وبعد ثلاثة أيام كانت ورشتي قد انتظمت في العمل، بوجود أكثر من ألف حرفي". ولسوء الحظ، فإن هذا الزي الأخف وزنًا لم يوفر الحماية اللازمة للجنود من برد الليل. ففي نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٧٩٨، كشف بيرنويه *Bernoyer* أن بونابرت قد أمره "بتجهيز عشرة آلاف معطفٍ سميك من الكتّان الرمادي، بحيث تسلم إلى المخازن على مدار الشهر التالي".

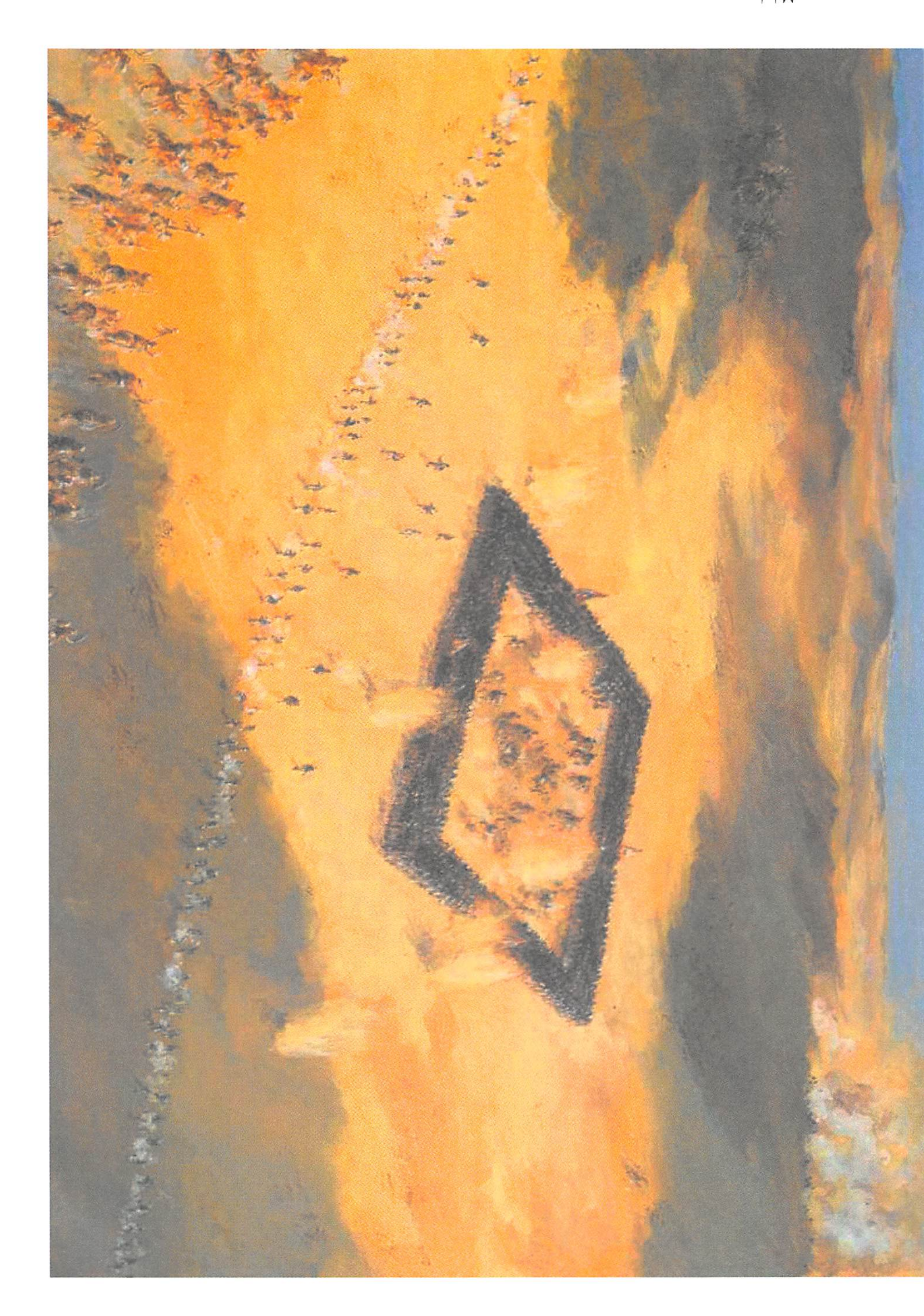
ويظهر في اللوحة:

" (١) الرمح مزدوج السنان: وقد تم تصنيعه قُبيل الحملة على الشام بطول بلغ حوالي خمسة أقدام. حيث كانت تثبت في الأرض مائلة إلى الأمام بزاوية حادة، ثم تربط معا بالسلاسل لتشكل سياجًا متصلًا من الرماح المشرعة في وجه فرسان العدو لردعهم عن اجتياح صفوف المشاة. (٢) عارضة خشبية قرب نهاية الرمح صُمِّمت لتسهيل تثبيت الرمح في الأرض عن طريق الضغط عليها بالقدم. (٣) درع للعنق (لضابط من الفوج الثامن والثمانين)، (٤) بيرق الفوج التاسع/مُشاة، (٥) أزرار عادية كبيرة وصغيرة تخص الفوج الثامن عشر، (٦) الطبلة (٧) الخوذة المعتمدة من قبل الجيش الفرنسي.



الإبرار على ساحل خليج مربوط:

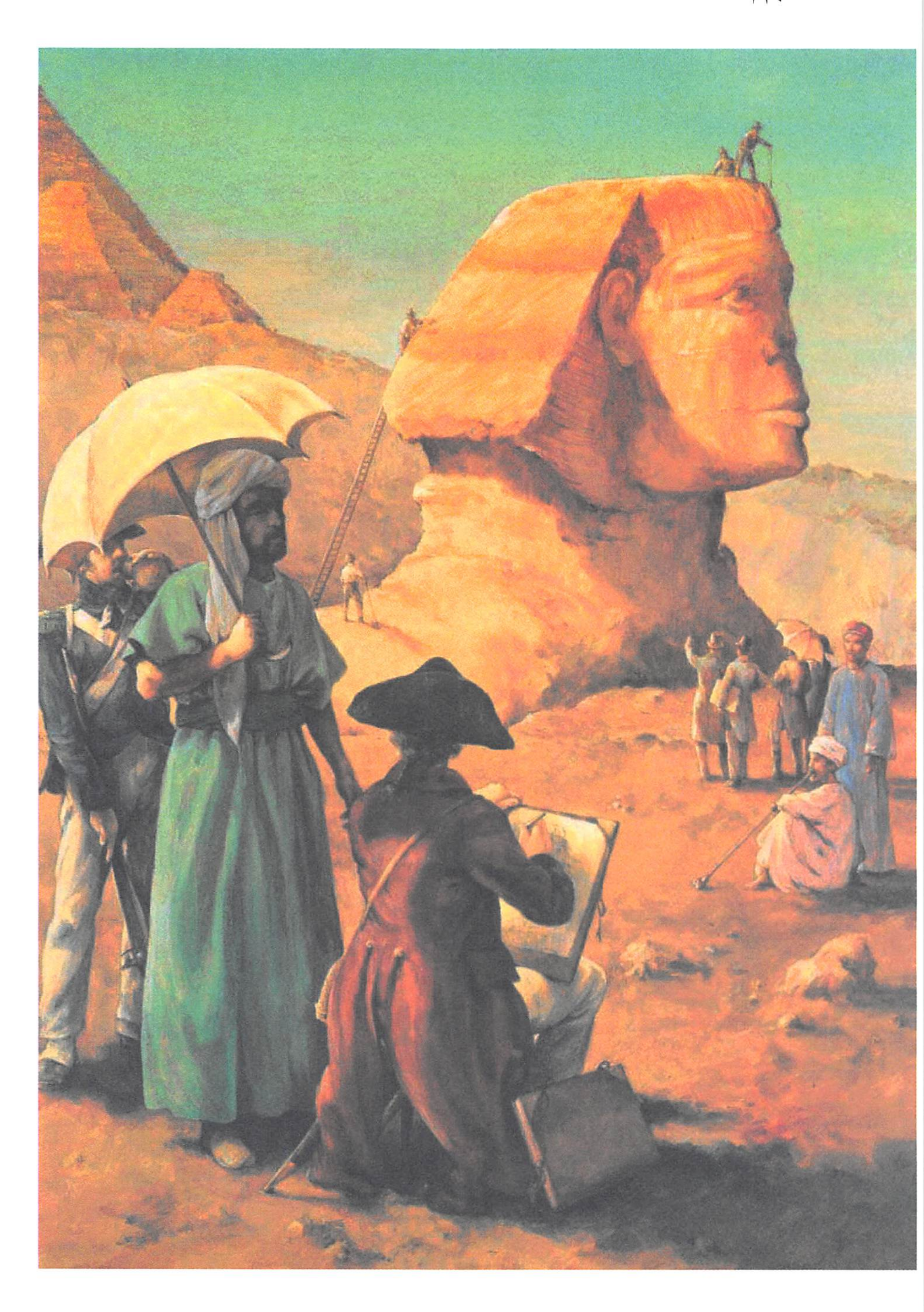
في مطاردة جرت فصولها عبر البحر المتوسط، وصل الأسطول البريطاني بقيادة نيلسون *Nelson* إلى الإسكندرية قبل الأسطول الفرنسي. وكانت آخر سفينة بريطانية قد غادرت السواحل المصرية قبل ساعتين فحسب من وصول الفرقاطة *Junon* طليعة السفن الفرنسية. وبعد أن أحيط بونابرت علماً بهذا، وخوفاً من عودة السفن الحربية البريطانية، أمر نابليون قواته بالإبرار الفوري في خليج مربوط بلا توان، وذلك على الرغم من نصيحة قادة البحرية الفرنسيين بالإبرار على ساحل أبي قير حيث إن سرعة الرياح وارتفاع الموج أكثر ملاءمة لعمليات إبرار القوات. على إثر ذلك أمر الجنرال كليبر فرقته بالاستعداد للإبرار الفوري، حيث شكا دوجيرو *Doguereau* من ظروف الإبرار الصعبة بقوله:"حمل كل جندي على ظهره تموين أربعة أيام من المياه والطعام، وستين طلقة، وألقت سفن الأسطول مراسيها، وبدأت بإنزال القوارب إلى المياه الصاخبة، وجدف الجنود باتجاه الشاطئ في طقس عاصف، حيث كان البحر هائجاً فغمرتنا الأمواج بالمياه، وعانت غالبية القوات من دوار البحر العنيف بسبب صعوبة التحكم في القوارب في طقس كهذا". وعُني مويو *Miot* أيضًا بذكر الصعوبات التي واجهت عملية الإبرار: " ألقوا بجنودنا إلى الساحل محشورين في القوارب. وبطبيعة الحال لم يتم الأمر دون أن نفقد العديد من الرجال. وعلاوة على ذلك، فقد أضاف حلول الظلام أخطارًا إضافية باحتمال اصطدام القوارب الخشبية بالصخور والشعاب التي تناثرت هنا وهناك على الشاطئ. لقد كان مشهدًا حزينًا يدور من حولي. حيث ما زلت أذكر صرخات الرجال من بعض القوارب المجاورة يطلبون منا النجدة - بعد أن فقدوا التحكم في قواربهم بسبب شدة الرياح وارتفاع الأمواج- وعبثًا توسلوا إلينا كي نقدم لهم يد المساعدة، بينما لم يكن بأيدينا أن نفعل شيئًا لهم". وذكر تشارل موران *Charles Morand* أيضًا صعوبة الإبرار بخليج مربوط بقوله: "في ٣٠ حزيران رأينا خطًّا أبيضَ ضبابيًّا في الأفق مؤذنًا باقترابنا من السواحل المصرية. وفي صباح الأول من يوليو كنا على بعد أميال قليلة فحسب من الشاطئ الذي كان يبدو لنا على طول خط الأفق. في ذلك المساء أسقطنا المرساة وبدأنا بإنزال القوارب. كان البحر ثائرًا بسبب الرياح الشمالية الغربية العنيفة، مما جعل عملية الإبرار من الصعوبة بمكان. وبالرغم من كل ذلك فقد تمكن عدد قليل من الفصائل من الإبرار ليلًا، بينما اضطررنا للانتظار حتى صباح اليوم التالي... وبمجرد أن لاح ضوء الصباح حتى قفزت في أحد القوارب وجدفنا باتجاه الشاطئ بصحبة بعض جنودي من الرماة. وبعد سويعات قليلة كان إبرار القوات برمته قد انتهى بنجاح. وكان بعض العربان من الإسكندرية قد تجمعوا خلال الصباح واحتموا خلف بعض الكثبان الرملية على بعد بضعة آلاف قامة *toises* من الشاطئ. فأطلقنا وابلًا من الرصاص من بنادقنا باتجاههم، فولّوا الأدبار لا يلوون على شيء".



معركة سدمنت SEDIMAN :

إبان مطاردة الجنرال ديزيه *Desaix* للمماليك في مصر العليا، اشتبكت فرقته - وقوامها ٣,٠٠٠ مقاتل- مع ما يصل إلى ١٠,٠٠٠ من مقاتل من المماليك. ويذكر موران *Morand* أنها المرة الأولى التي شعر الفرنسيون فيها بأنهم في وضع خطير منذ اجتياحهم مصر. ففي تقرير مُفصَّل عن هذه المعركة، وصف موران كيف: "بعد أن دار فرسان المماليك حول الفرقة مرات عدة، قرروا أخيرًا مهاجمة المربع الأيمن الصغير. ... عندئذ أطلق طلائع المشاة من قناصة الفوج الحادي والعشرين وابلًا من النيران من مسافة قريبة على فرسان المماليك، قبل أن يخفضوا الحراب استعدادًا للاشتباك وجهًا لوجه. ولم تشفع قوة اندفاع المماليك ولا مهارة فرسانهم في اختراق أو زعزعة هؤلاء الجنود الشجعان عن مواقعهم قيد أنملة. واستمر القتال وجهًا لوجه لبضع دقائق عندما تراجع فرسان المماليك فجأة لنحو ست خطوات إلى الخلف. ثم اندفعوا وهم في حالة من اليأس الممزوج بالغضب العارم، فصبوا جام غضبهم على الصفوف الأمامية للمربع الأيمن الذي بوغتت بهذا الهجوم الصاعق فبدأ بالتشرذم. ولم يتمكن الجنود الفرنسيون من إعادة تجميع صفوفهم، ووقع نحو ثلاثين رجلًا بين قتيل وجريح، وتمكن المماليك من كسر المربع بفتح ثغرة كبيرة فيه ومن ثم اجتياحه. بينما اتجهت شراذمنا هربًا بأنفسهم صوب المربع الرئيسي للاحتماء به. وبعد نجاحهم في تمزيق المربع الصغير، رمى العدو بنفسه على الفوج الثامن والثمانين، الذي شكل ضلعًا كاملًا من أضلاع المربع الرئيسي، وسرعان ما تم القضاء عليهم عبر توجيه وابل كثيف من النيران من الفوج ومن الضلع المقابل في المربع الأيسر الصغير الذي ارتكز إلى الخلف قليلًا من المربع الرئيسي. وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عصرًا - دون أن يبدو في الأفق أي مؤشر يدل على قرب انتهاء هذه المعركة الدامية- عندما تناهت إلى أسماعنا أصوات صيحات وصرخات قادمة من مركز المربع الرئيسي، حيث سمعنا دوي قذيفة مدفعية كانت قد تجاوزت رؤوسنا بعدة قامات *toises*. وسرعان ما تبعتها الثانية. عندها أصدر الجنرال ديزيه *Desaix* أوامره بنقل الجرحى إلى مركز المربع، ثم أمر المربع باتخاذ وضع الهجوم. سرنا بالبنادق عدوًا، حيث سمعنا دوي انفجار القذيفة المدفعية الثالثة التي أصابت بعض الرجال في صفوفنا، وقتلت اثنين آخرين، بالإضافة إلى جوادين من خيول المدفعية ودمرت أحد مدافعنا. كما تسبب وابل النيران الذي أطلقه العدو صوبنا في اضطراب محدود في صفوفنا. وفي الوقت نفسه حاول فرسان المماليك استغلال هذا الدعم المدفعي بالهجوم على مؤخرة المربع. بيد أن طلائعنا سرعان ما ارتدت لتغطية المؤخرة فالتحموا بسرعة في صفوف منتظمة". وهكذا التحم الفوج الذي كان به موران *Morand*، مع العدو وجهًا لوجه ونجح في إسكات بطاريات مدافعه. وتحت وابل من النيران الكثيفة التي أطلقوها من على مسافة قريبة حيث أجبروا المماليك أخيرًا على الفرار بعد أن كبدوهم خسائر فادحة.

وأشاد موران في رسالة أرسلها إلى الجنرال ديزيه، بالدور المحوري الذي قام به قائد المشاة النقيب بيات *Piat* بقوله: "في اللحظة التي اندفع فيها الفوج صوب مدافع العدو لإسكاتها، احتشد المماليك للهجوم على المؤخرة استغلالًا لهذه الفرصة، فأعاقهم المواطن بيات *Piat* وقاومهم بعناد حتى أجبرهم على الفرار، إذا قام بحشد المشاة معًا، مما نتج عنه قوة نيرانية مروعة، أعاقت فرسان المماليك عن استكمال هجومهم. مما وفر وقتًا ثمينًا للفوج الثامن والثمانين للاصطفاف وإعادة تشكيل الضلع المكسور، دون الانفصال عن المربع".



دينون **DENON** وأبو الهول:

رسم الفنان دومينيك ڤيڤان دينون *Dominque Vivant Denon* (١٧٤٧-١٨٢٥) نحو ١٥٠ لوحة من اللوحات المدرجة في موسوعة **وصف مصر** *Description de l'Égypte*. كما نشر في عام ١٨٠٢ تقريرًا في مجلدين مثَّل أول تقرير معمق عن الحياة في مصر في عصر الحملة. وعلى الرغم من أسف دينون لعدم إتاحة الوقت الكافي له كي يرسم المعالم الأثرية في مصر السُّفلى، فقد نجح في القيام بزيارة قصيرة إلى الجيزة، حيث الأهرامات، أو بالأحرى أبي الهول الذي ترك في نفسه انطباعًا دائمًا:

"لم يكن لدي وقت إلا لاستعراض أبي الهول فحسب، الذي استحق عن جدارة أن يُرسم بتدقيق، وأن يُولى من الاهتمام أكثر مما وهبه له فنان في أي وقت مضى. وعلى الرغم من أبعاده الهائلة، فقد تميز تصميمه بالأصالة والرشاقة. فتعبيرات الرأس معتدلة، تنم عن شموخٍ وأناقةٍ. وقد عكست شخصيته - واقعيًّا- أصولًا إفريقية. فثمّ الفم والشفاه الغليظة، كما أن تلك المرونة والرقة في التنفيذ جديرتان بالإعجاب حقًّا، حيث يبدو التمثال للناظر جسدًا واقعيًّا حيًّا".

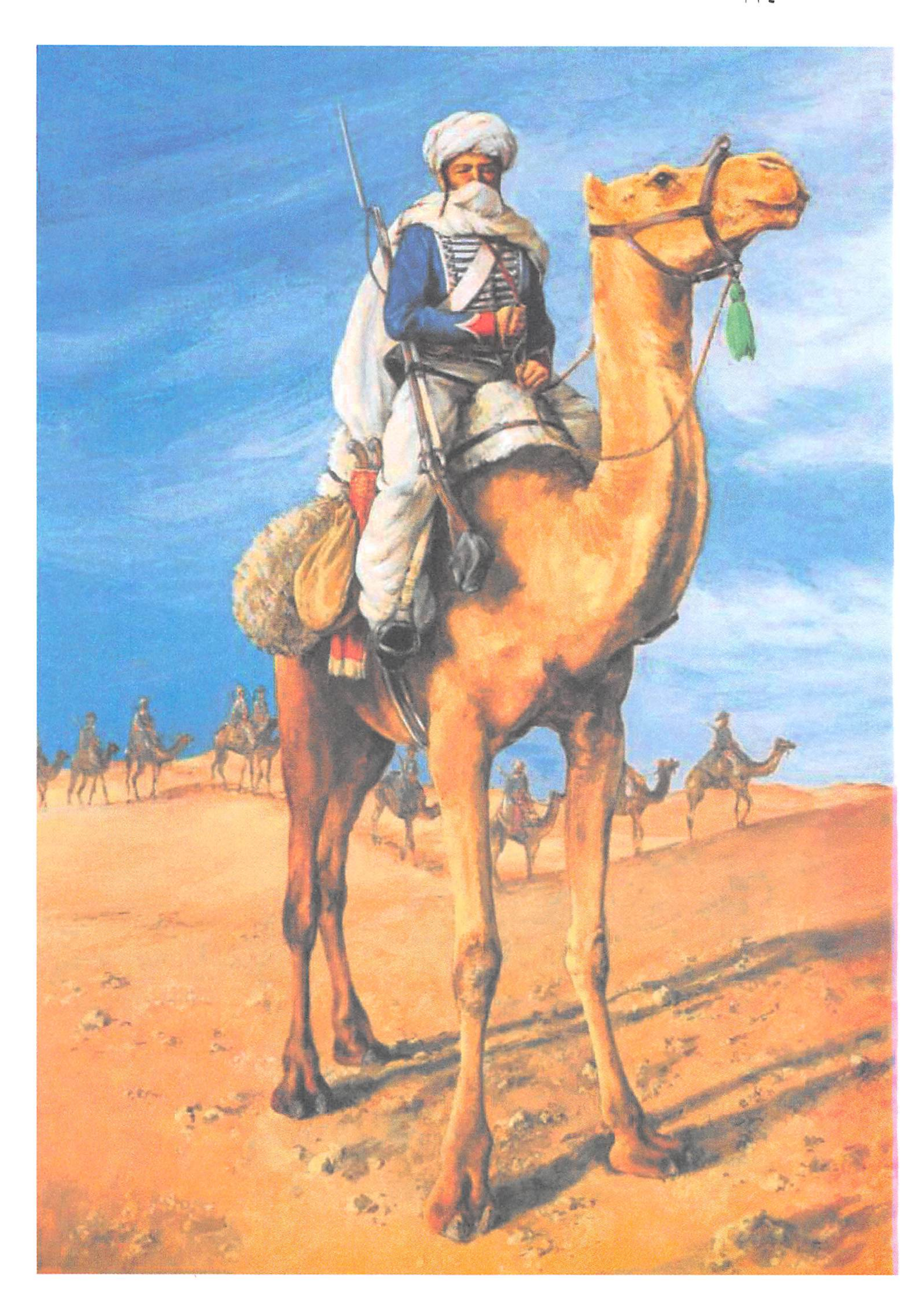
تمتع علماء الحملة -عامةً- بكراهية شديدة من قبل الجنود الذين حمَّلوهم كافة أخطاء الحملة، ولاسيما انقطاع السبل بهم عن وطنهم في مصر. وغالبًا ما استأثر العلماء بمهام الترسُّل بين الجنرالات. وقد أُصيب دينون *Denon* في واحدة من هذه المهام على نحو يُبين إلى أي مدى بلغ حقد الجنود على العلماء:

"بينما أسرعت إلى تنفيذ مهمتي، كان ثمَّ جندي يسير خارج الصفوف، وكان قد سمع صوت اقتراب جوادي، فتحول فجأة إلى اليسار بينما كنت أحاول المرور إلى اليمين، ووجه طعنة بحربته المثبتة في بندقيته نحو صدري بَغتةً. وقبل أن أتمكن من توقِّي النصل الحاد، كانت تلك الضربة المفاجئة قد أطاحت بي عن صهوة جوادي، وفي الوقت نفسه سقط هو الآخر أرضًا جراء رد الفعل السريع. وصاح وهو يسقط "ها هو أحد العلماء *savants* الحقراء!"، فبالنسبة لهؤلاء الجنود كان كل من ليس مُنخرطًا في سلك الجنديَّة من العلماء! ولحسن حظي عملت بعض القطع النقدية التي كانت في جيب معطفي عمل الدرع، فتلقت نصل الحربة عوضًا عن ضلوعي". كان دينون سعيدًا لكونه واحدًا من الذين وقع عليهم اختيار بونابرت كي يعود معه إلى فرنسا في أغسطس من عام ١٧٩٩.



معركة الناصرة *NAZARETH* (*Lubya*):

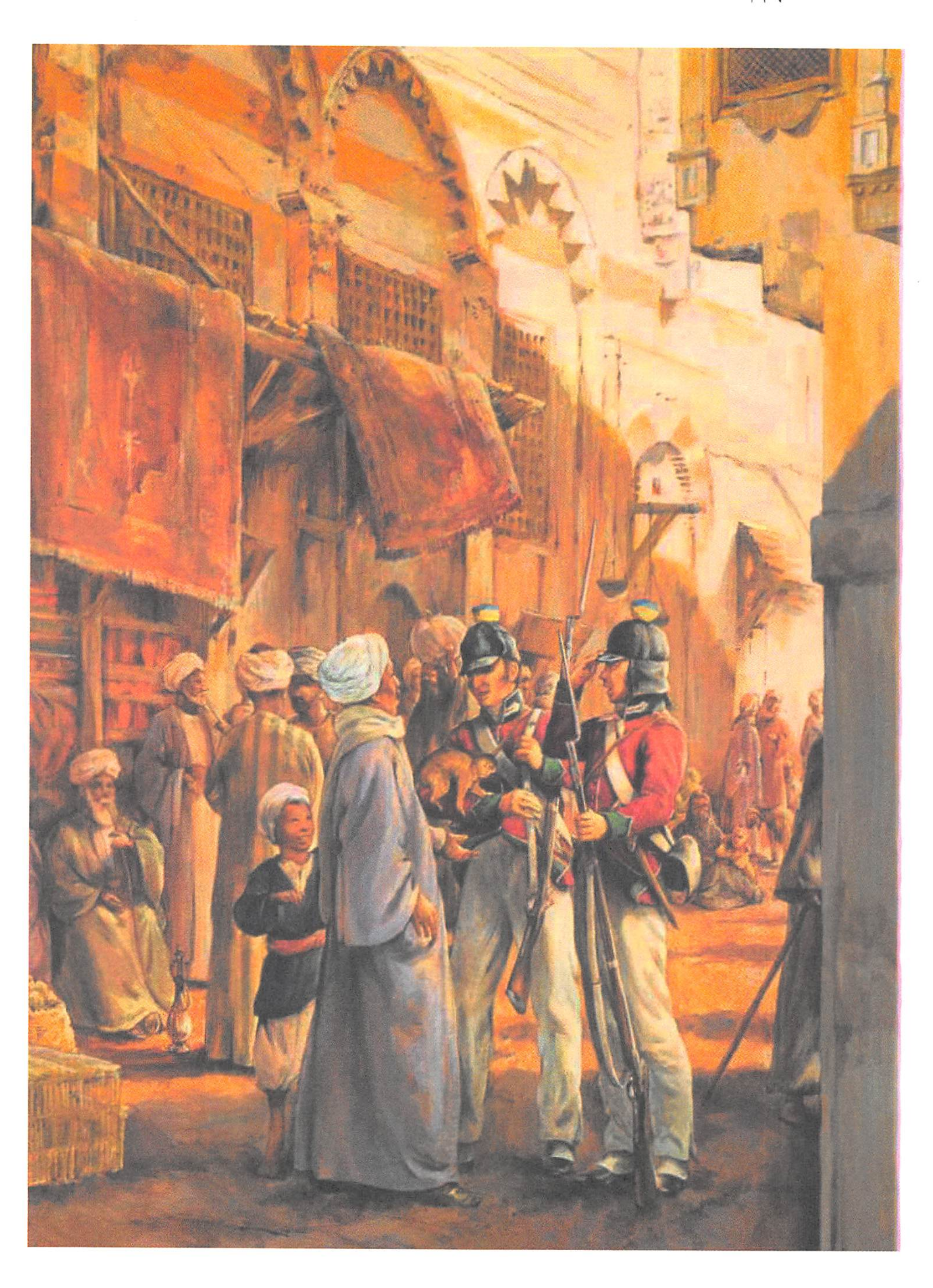
في الثامن من أبريل عام ١٧٩٩، وأثناء مسيرة على مقربة من الناصرة واجه الجنرال جونو *Junot* الذي كان يقود نحو ١٥٠ فارسًا و٣٠٠ من المشاة، قوةً عثمانية تحصنت في التلال المجاورة. وعند العاشرة صباحًا تطورت تلك المواجهة إلى معركة حامية الوطيس، إذ هاجم قرابة ألف فارس عثماني مقدمة الطابور الفرنسي. وقد ترك الضابط الفارس من الفوج الرابع عشر/فرسان تقريرًا مفصلًا عن ذلك القتال المرير: "عاد القناصة من المشاة والفرسان من قوة الاستطلاع إلى خطوطنا الخلفية أثناء قتال العدو. وبدا أن هذه المعركة ستكون قصيرة. فقد استقبل الأتراك الصدمة دون إحباط، بل إن سيوفهم انهالت على خوذاتنا تُثخن فينا. وأخيرًا -وبعد لأي- اخترقنا صفوفهم... ولكن هذا لم ينهِ المعركة، بل بالأحرى بدأها، فلم يكن يعدو هذا أن يكون الاشتباك الأول!... فثم مجموعة جديدة من الفرسان اجتاحت ميدان المعركة. وأصبحنا الآن في مواجهة أكثر من ثلاثة آلاف فارس. ومع برود أعصاب مثير للإعجاب، أصدر الجنرال جونو *Junot* أوامره لقوته الصغيرة بالانسحاب إلى التلال.... وبمجرد أن وصلنا إلى مواقعنا الجديدة انقض علينا الفرسان الأتراك لا يبالون بشيء، وقد أطلقوا تلك الصرخات الفظيعة. وعكست أشعة الشمس ألق سيوفهم، وثيابهم الفضفاضة المطرزة بالذهب التي عكست بدورها مدى ثرائهم. قفزت خيولهم -التي بدت وكأنها تشاركهم غضبهم- نحونا. أما نحن فقد ساد بيننا صمت وترقب عميق. وقد صوب الفرسان بنادقهم في وضع الاستعداد لإطلاق النار.... وعند مسافة معقولة، أمر جونو *Junot* بإطلاق النار. فانطلق وابل كثيف من الرصاص، الذي غطي على صوت ضجيج صهيل الخيل وقرع السيوف. وعلى الرغم من الدخان الكثيف الذي أحاط بنا، شعرت بتدفق هؤلاء الفرسان البشعون ذوي الوجوه الكالحة حولنا كالشياطين. وعلى الفور أمر قائد الطابور دوڤيڤيه *Duvivier* بسل السيوف وتلقينا الحملة التركية الغاضبة بثبات، وبدأ سيوفنا تثخن فيهم وتطيح برقابهم. وصوب أحد ذوي الثياب المملوكية الفاخرة مسدسه نحو رأسي، فراوغته وأخطأتني رصاصته، وتعزَّيتُ بإردائه قتيلًا تحت قدمي. في هذه الأثناء لاحظت أن العميد بريڤو *Prévot* يقاتل -مترجلًا- فارسين تركيين بثبات بعد أن كبا به فرسه، لكنه استطاع أن يقف مرة أخرى على قدميه في الوقت المناسب، وبهدوء أعصاب مذهل تصدى لضربات عدويه. وهُرع بيجنار *Pignard* الشجاع لمساندته واخترق بسيفه جسد أحد الأعداء، في حين وجه بريڤو *Prévot* ضربة خلفيةً مميتة للآخر... وعلى البعد، رأيت رقيبًا من فوجنا قد بوغت بهجوم أحد المماليك الذي نجح في اغتنام بيرقنا فغطى به مؤخرة فرسه حيث تدلى على ذيله الطويل. وقد كافح الفارسان في مبارزة حامية الوطيس، وتصاعد القتال بينهما في شراسة. وأخيرًا سقطا من على صهوة جواديهما وتدحرجا أرضًا، بيد أن الفارس التركي - المثقل بملابسه الفضفاضة- لم يتمكن من النهوض في الوقت المناسب، فاخترق نصل سيف الرقيب صدره مصحوبًا بصرخة غضب نمَّ عن ثورته العارمة لرؤية بيرقه في يد عدوه.



الهجانة *LES DROMADAIRES*:

أمر بونابرت بتشكيل فرقة الهجانة *dromadaires* في ٩ يناير ١٧٩٩، لمواجهة ذلك النقص الحاد في سلاح الفرسان. وبدلا من استخدام الفرسان في هذا الفوج الجديد، أمر بونابرت أن يُرشح كل فوج من عشر إلى خمسة عشر جنديًا من جنود المشاة للخدمة في الفوج الجديد، حيث ارتدوا الزي العسكري على الطراز الشرقي. ونصت شروط القبول على أن الحد الأدنى لطول الجندي المنضم إلى الفوج الجديد هو ٥ أقدام و٤ بوصات (١,٧٣م)؛ والحد الأدنى للسن ٢٤ عامًا، على ألا تقل مدة خدمة الجندي المنضم إلى هذا الفوج عن أربع سنوات على الأقل، مع شجاعة وإقدام مشهودٍ له بهما.

وتمتع الهجانة بوضعية الفرسان في الجيش، فتقاضوا الأجور نفسها التي تقاضاها الفرسان، وتمتع قائد الهجانة برتبة قائد فوج *chef de brigade* (مدعومًا بضابطين من رتبة رائد، وعدد من الضباط من الفئة الثالثة)، وتألف الفوج الجديد من كتيبتين، يقود كل منهما ضابطٌ برتبة رائد *chef d'escadron*. بينما تألفت كل كتيبة من أربع سرايا، يقود كل سرية منها ضابط برتبة نقيب، يعاونه ضابط برتبة ملازم، ورقيب، اثنان من ضباط الصف، وعريف، بالإضافة إلى نافخ البوق *trompette*، وعدد ٥٠ هجانًا. وقد سُلّح الهجانة بالبنادق، والحراب بالغة الطول. وكانت أساليب القتال التي تدربوا عليها جديدة تمامًا. فقد تدرب الهجانة على القتال مترجلين في المربعات بالقرب من موضع بَرْك جمالهم، حيث أجبروا على النزول عنها في وضعية الدفاع عن المربع جنبًا إلى جنب مع المشاة. ثم قيادة الهجوم المضاد عند النجاح في صد تقدم العدو. فكانت الهجانة تقوم على الفور بامتطاء الجمال ومطاردة فلول العدو الهاربة، للحيلولة دون إعادة تجميع صفوفه مجددًا.



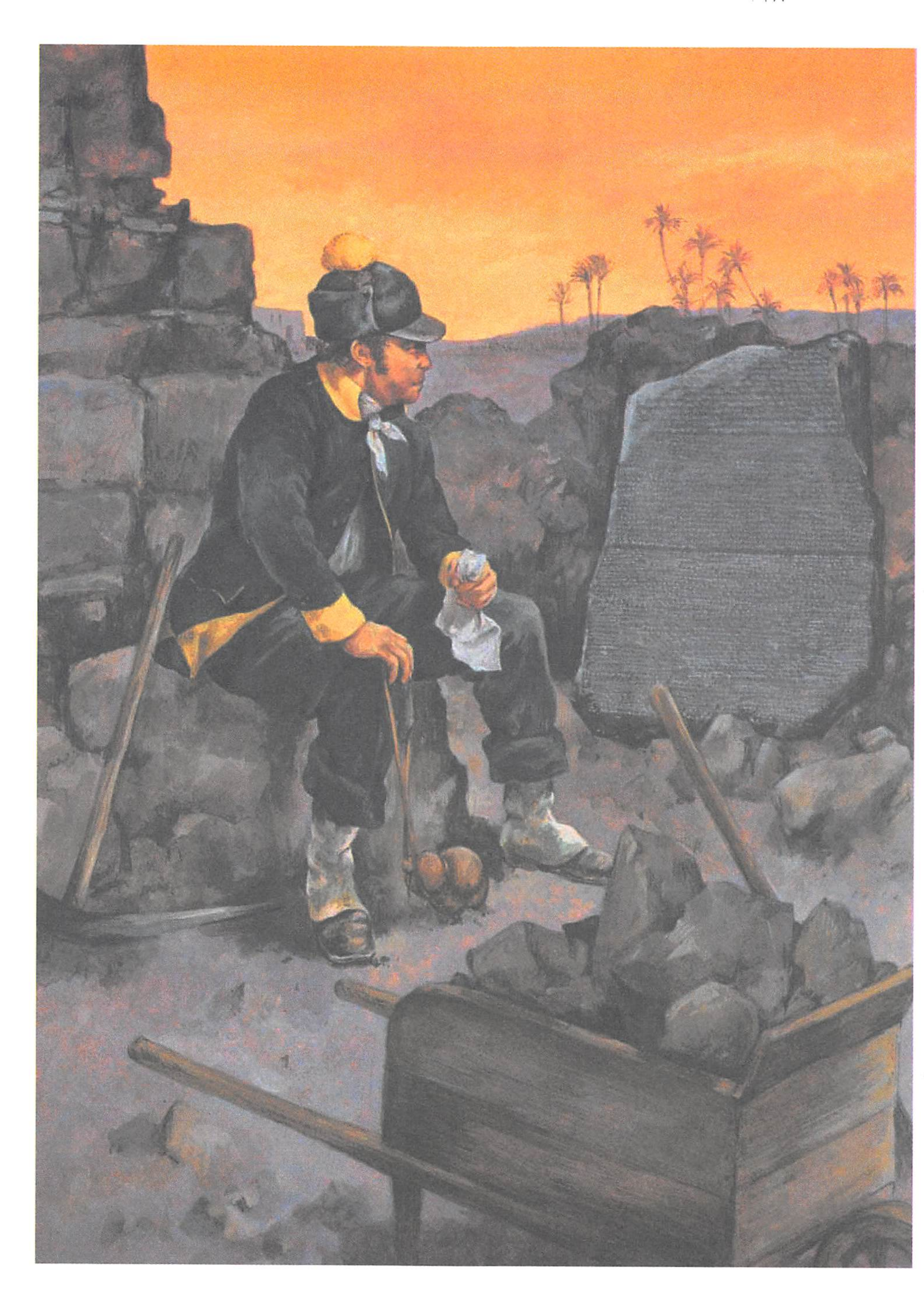
الزي المصري:

طلب بونابرت من بيرنويه *Bernoyer* بعد معركة جبل طابور، العمل على استبدال معاطف الجنود القطنية الرثة. وسجل الأخير رده في رسالة مؤرخة بـ ١ يوليو ١٧٩٩:

"لاحظت أنه سيكون من المستحيل تقريبًا توفير زي موحد للقوات من الصوف. وبناء عليه سيكون من الضروري تمييز كل سلاح بلون مختلف لتلك المعاطف. إذ من المؤكد أننا لن نجد كمية من الصوف - في القرى أو المظان التي يفترض وجوده فيها- تكفي لصنع معاطف سريتين من المشاة على الأكثر. والرأي عندي هو استبدال الصوف بالقطن الأزرق *blue cotton*. وفي حال الموافقة على هذا المقترح، فيمكن لمخازن الجيش تَسلُّم تلك المعاطف في غضون شهر من الآن".

ومع ذلك، عندما صمم جراندچان *Grandjean* الزي الجديد خلال الصيف التالي، أصدر تعليماته بعدم استخدام القطن في صنعها:

"قبل عدة أيام على رحيله [إلى فرنسا]، أنهك بونابرت نفسه في تفاصيل تصميم زيٍّ ثانٍ للجيش، يكون أكثر تحملًا من الزي الأول، الذي كان مصنوعًا من القطن. ورغب الجنرال أن تكون المعاطف الجديدة من الصوف. وكمنت الصعوبة في العثور على كمية كبيرة بما فيه الكفاية من الصوف في مصر.... وفي أقل من ثلاثة أشهر، وصلت إلى المخازن نحو ٤٠,٠٠٠ قنطارًا من القماش مختلف الأنواع والألوان والكميات والأغراض.... فاضطررنا لاستخدام ما تحت أيدينا من القماش في مصر، فتعددت ألوان ملابس القوات بين ثمان إلى عشر ألوان مختلفة، وكانت التصميمات الجديدة أبعد ما تكون عن القُبح، بل العكس من ذلك أضفت لمسةً جماليَّة رائعة، وجعلت جيشنا يبدو أكثر عددًا مما كان عليه بكثير".

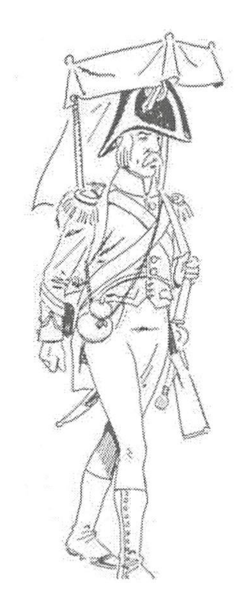


حجر رشيد *THE ROSETTA STONE*:

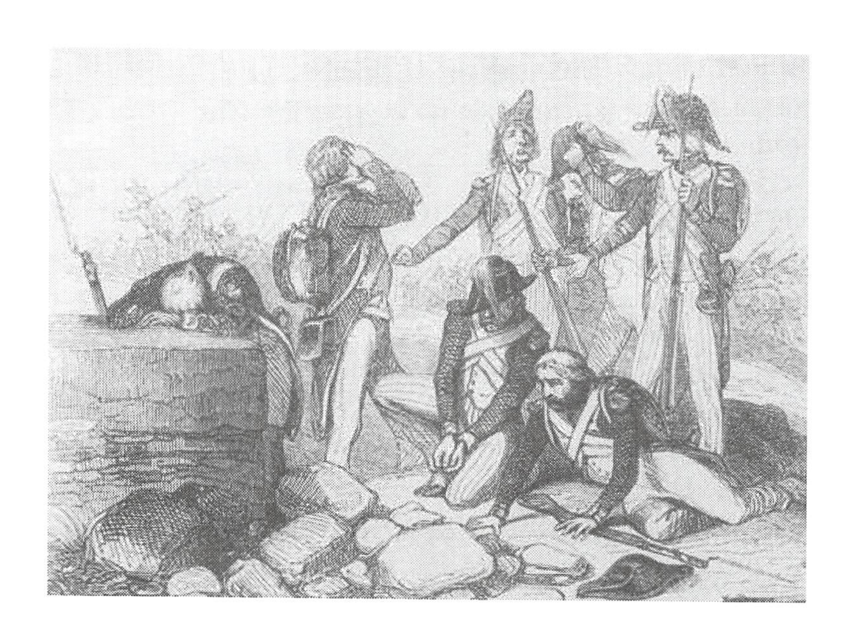
في العشرين من أغسطس/آب من عام ١٧٩٩، وأثناء هدم جدار في حصن سان جوليان *Julien Fort St*، عثر جندي يدعى دي هاوتبول *d' Hautpoul* على لوح أسود كبير يقترب من أربعة أقدام في الطول، ويزن أكثر من ربع طن. وقد نقش بالكتابات على وجه واحد فحسب، فأخطر رئيسه الملازم بوشار *Bouchard*، الذي اتصل بدوره بميشيل آنج لانكريه *Michel-Ange Lancret* الذي كان عضواً في بالمجمع العلمي بالقاهرة. وأدرك لانكريه على الفور أن اللوح به نص يوناني بالإضافة إلى نص هيروغليفي، جنباً إلى جنب مع لغة مكتوبة بأبجدية أخرى كانت مجهولة حتى تاريخه (الديموطيقية *Demotic*). وسرعان ما أمر لانكريه بوشار بالعمل على نقل ذلك الحجر إلى القاهرة لفحصه على أيدي العلماء هناك.

وبالرغم من اشتباه العلماء في أن النص اليوناني المنقوش على الحجر هو مفتاح حل رموز اللغة الهيروغليفية، فقد أصابهم الإحباط لعدم قدرتهم على فك رموز النقوش المثبتة على وجه الحجر. وكذلك عدم تمكنهم من حل رموز تلك الأبجدية الأخرى الغامضة. وبالرغم من صُنع قوالب ونسخ طبق الأصل من الحجر تبادلوها فيما بينهم، فقد ظلوا غير قادرين على كشف أسرار الكتابة الهيروغليفية. فقاموا بإرسال بعض تلك القوالب من ذلك الحجر إلى باريس حيث ساد الحماس والفضول الكبير ليس في فرنسا فحسب، بل في سائر أنحاء أوروبا.

وعند استسلام الفرنسيين للبريطانيين في الإسكندرية، طالب البريطانيون الفرنسيين بتسليم كافة مكتشفاتهم في مصر لهم، ولا سيما ذلك الحجر الأسود الذي عُثر عليه في رشيد وكانت شهرته قد طبقت الآفاق. وعبثاً حاول الجنرال مينو *Menou* المناورة والتملص من المطالب الإنجليزية، وادّعى أن الحجرَ ملكية خاصة له. ومن ثم لا يخضع لشروط معاهدة الاستسلام، ولكن البريطانيين رفضُوا بإصرار ادعاءات مينو. وأخيراً وصل الحجر المصادر إلى بورتسموث *Portsmouth* في فبراير من عام ١٨٠٢ على متن سفينة *HMS l'Égyptienne* ومن سخرية القدر أن تلك الفُرقاطة التي حملته إلى انجلترا كانت سفينة فرنسية غنمها الإنجليز. وقد أودع الحجر في نهاية تلك السنة في المتحف البريطاني *British Museum* حيث لا يزال معروضاً هناك حتى يوم الناس هذا. لقد مثَّل اكتشاف هذا الحجر أهم إنجاز للحملة في غضون السنوات الثلاث. وعندما استطاع جان فرانسوا شامبليون *Jean-François Champollion* حل رموز النقوش المرسومة على ذلك الحجر عام ١٨٢٢ وتمكن من قراءتها كان الضوء قد سطع أخيراً على العالم السِّري لفراعنة مصر.



جندي استحدث مظلةً ليقي رأسه ضراوة الشمس، وكذلك العمى المؤقت (*ophthalmia*) الناجم عن انعكاس وهج الشمس على الرمال، وهو مرض أصاب العديد من الجنود أثناء اجتياز الصحاري.



عملية بحث يائسة عن الماء - في مسيرة عبر الصحراء- انتهت بإصابة هؤلاء الجنود البؤساء بتسمم حاد.

وعلى صعيد آخر كان أداء الخيول العربية -المصادرة في مصر مؤخرًا- باهرًا. على نحو فاجأ الضابط الفارس:

"ما رأيتُ أبدًا حصانًا مثقلًا على هذا النحو ويمشي بمثل هذه السرعة! فقد كان كل حصان يحمل على ظهره مؤنة أربعة أيام من الماء، أي نحو عشرين لترًا، بالإضافة إلى أواني المعسكر، فضلًا عن الفارس وأسلحته وذخائره. وكثيرًا ما توقعتُ انهياره تحت هذا الحمل الثقيل، ولكن ذلك لم يحدث



خاطب بونابرت إحدى الفرق التي بدأت في التذمر أثناء عبور الصحراء القاحلة بين الإسكندرية والقاهرة قائلًا: "أنتم تجأرون بالشكوى الآن. أحَسِبتم أنكم ستصيبون المجد عبر الراحة والدعة؟! بعد ساعات قليلة سوف تصلون إلى ضفاف النيل. وهناك سوف تنتهي معاناتكم. لقد سمعتُ همهماتكُم. أتُراكُم نسيتم أنني دائمًا ما أصنع مجدي بكم؟ بعد ثلاثة أشهر من اليوم سأعود بكم إلى فرنسا". (من أوراق موران *Morand*).

مطلقًا.... إنها جيادُ قنوعةُ، لا تعرف الكلل، وتشرب ربع كمية الماء التي يشربها الحصان الفرنسي، وتسير أفضل منه عشر مرات!".

وخفَّضت القيادة مجددًا حصص الجنود إلى الحدِّ الأدنى اللازم لبقاء الجندي على قيد الحياة، وذلك على الرغم من استيلائهم على إمدادات العدو. ففي العريش، حيث أقام الجيش معسكره، أقر كايو *Cailleux*: "كنا نتناول لحوم الإبل والخيول والحمير وحتى الكلاب. وعانينا على نحو أقسى في هذا المخيم مما كان عليه الأمر إبان اجتيازنا للصحراء بحيث اضطررنا في نهاية الأمر إلى طحن نوى التمور وتناولها".

وعانى لاڤال *Laval* المحنة نفسها بقوله: "...واضطررت لتناول لحوم الجمال والبغال والحمير والكلاب للحفاظ على حياتي، وكثيرًا ما اضطررت لتناول العشب تخفيفًا لسَوْرة الظمأ، حتى وصلنا إلى غزة".

كما مثَّل العُربان شوكةً قويةً في جنب الفرنسيين إبان مسيرهم، إذ كان ينبغي عليهم أن يتحسَّبُوا جيدًا لتلك الهجمات المباغتة من قبل هؤلاء العُربان. فمنذ أن هبطوا مصر، شكَّل العُربان مصدر إزعاج دائم للجنود الفرنسيين. فقد كتب جراندچان *Grandjean* مصدُومًا:

"وكان هؤلاء الأعداء [يعني العُربان] ماهرون، وقد ساعدتهم خيولهم - المعروفة بأنها الأفضل في العالم- على نحو جيد. لقد كانوا ينقضُّون على قواتنا كالسَّيل، ويأسرون رجلًا من بين صفوفنا، ويحملونه معهم ويختفون عن الأنظار في ومضة عين... لم يقاتلونا وجهًا لوجه في جماعات قط، بيد أنهم

كانوا يتحينون الفرص المواتية للهجوم علينا على حين غِرَّة، عندها يبرز للغارة أكثرهم جسارة وجرأةً من فرسانهم فيسقطون على أعدائهم على النحو الذي وصفت. ولم يكن هدفهم الدفاع عن وطنهم ضدنا، فهؤلاء الناس لا وطن لهم. إنهم يعيشون في الصحراء، ويهيمون على وجوههم هنا وهناك، ويرتزقون على قطع الطرق فحسب".

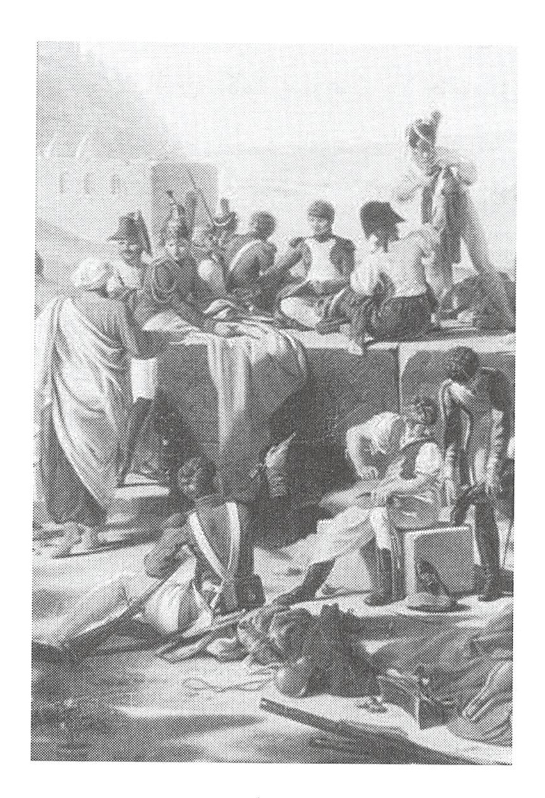
/ وغالبًا ما عذَّب أو أعدم هؤلاء العربان أسراهم على مرأى ومسمع من رفاقهم من الجنود الذين كانوا يسارعون بالاحتماء في التشكيلات المربعة أو الطوابير. وقد رُوِّع الجنود الفرنسيون لرؤية اختطاف هؤلاء العربان لرفاقهم من بين صفوفهم. فقد كتب موران *Morand* "أُشفق على هؤلاء التعساء الذين سقطوا في أيديهم، لقد جردوهم من ملابسهم، وقبل أن يقتلوهم استرضوا غرائزهم البغيضة ومشاعرهم الكريهة تجاههم". ٤٤

- **التشكيلات القتالية المربعة في مصر:**

جرى أول اشتباك -على نطاق واسع- ضد المماليك في شبراخيت. إذ يتذكر النقيب ڤيرتراي *Vertray* عشية المعركة:

"أعلن قائد كل سرية جنوده أن القتال على وشك أن يبدأ، فاستقبل الجنود هذا الخبر بحماس. وعندما كنا ننتظم في الصفوف، كان الجنود يجرون عملية تفتيش دقيقة على أسلحتهم، ويشحذون حرابهم، ويتحققون من الزناد والطارق في بنادقهم، بينما استغرقوا في الغناء كما لو كانوا يستعدون لحفل!... وعند شروق الشمس، بدأت الموسيقى العسكرية في

العزف فجأةً، حيث كان القائد العام قد أمر بعزف النشيد الوطني الفرنسي *La Marseillaise*، إذ كان يعرف تأثيره الإيجابي على القوات المتحفزة للقتال. لقد شحذت هذه الأنشودة عزيمة الجنود، وثبتت قلوبهم، وأشعلت وطنيتهم، وجعلتهم يدركون أن وقت التذمر قد ولَّى، وحريٌّ بهم الانتصار الآن.



لوحة رسمها تارديو *Tardieu*، وتُظهر انهماك الجنود في إصلاح أحذيتهم وأمتعتهم بُعيد وصولهم إلى أسوان. وثمة جندي يفحص بندقيته لضمان وقايتها من الصدأ وتأثير حبيبات الرمال الناعمة.

وبعد مُديدة، لاحظ ڤيرتراي *Vertray* - المتلهف على القتال- أن "رتلًا من فرسان المماليك قد خرج من خلف أشجار النخيل عن يسار الجيش، بحيث شكل نصف دائرة، وبدا الأمر كما لو أنهم يرومون الإحاطة بنا".

وعند مقارنة رواية ڤيرتراي *Vertray* برواية تشالبران *Chalbrand* يتضح أنهما كانا على طرفي نقيض:

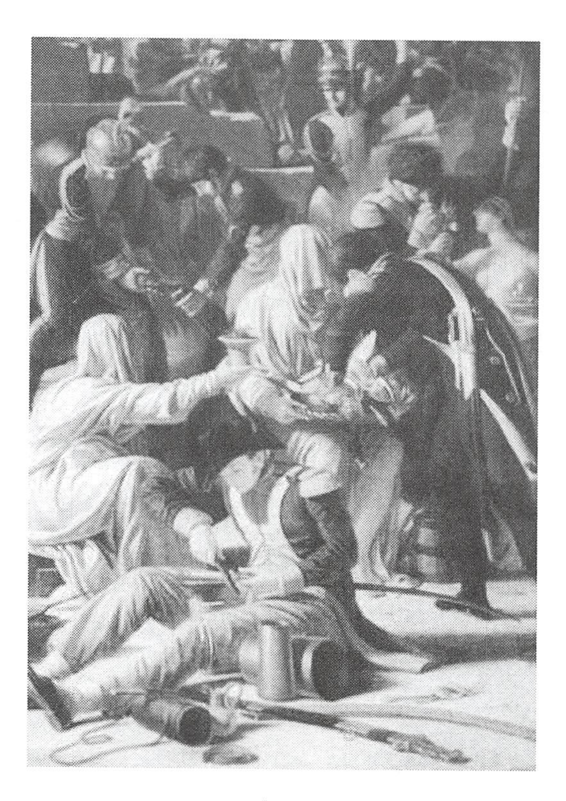
".... خلال اللحظات التي سبقت الاشتباك العام، أُتيحت لنا فرصة جيدة للحكم على عدونا الجديد في القتال، من خلال عدة مناوشات جرت بين عدد من المماليك وبين طلائعنا من المناوشين *tirailleurs* (١). ويمكنني القول إنه لا بأس أبدًا بقتال المماليك، فثمَّ شجاعة وثبات مثيران للإعجاب. فعلى نحو أو آخر يربط الفارس نفسه بفرسه بحيث يظهران وكأنهما كتلة واحدة، ويشهر سيفه الذي يتمسك جيدًا به من الرسغ، ويطلق غدَّارته - وهي بندقية قديمة من طراز بلاندرباص *blunderbuss*- / إلى جانب أربعة مسدسات يستخدمها واحدًا تلو الآخر، وبعد أن أشرعوا أسلحتهم الستة، أحاطوا بطلائعنا من قوات المناوشين *tirailleurs*، ومرقوا من بينهم ببراعة منقطعة النظير. ومع ذلك، فإننا سرعان ما تيقنَّا أن هؤلاء

٤٥

(١) وحدات من المشاة المسلحة تسليحًا خفيفًا. كانوا يرتكزون أمام التشكيلات المربعة بعدة مئات من الأمتار، وأنيط بهم التصدي لطلائع العدو وإحداث أكبر قدر من الخسائر في صفوفه إبان هجومه الرئيسي، وفي حال الفشل في ذلك كانوا ينسحبون من أماكنهم ويتراجعون للاحتماء بالتشكيلات المربعة. (المترجم).

الرجال لا نظير لهم في الشجاعة في القتال على المستوى الفردي، بيد أنهم ليس لديهم فكرة تذكر عن القتال الجماعي أو المناورة الجماعية".

شاهد موران *Morand* الاشتباك نفسه، وسجل رأيًا إيجابيًّا عن المماليك، وذلك في تناقض مباشر مع كراهيته التي سبق وأن أبداها تجاه العُربان من البدو الذين تحرشوا بهم إبان مسيرتهم:



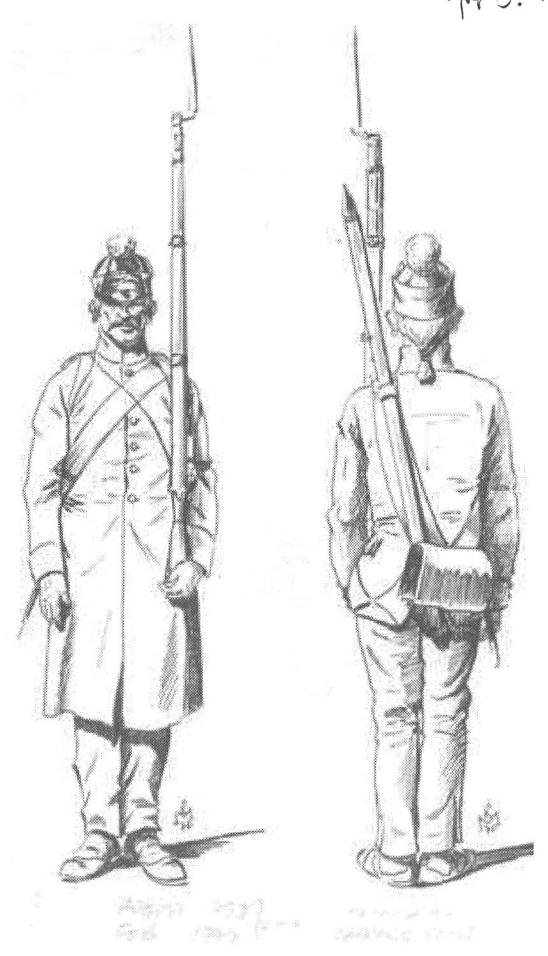
يبدو أن هذا الجندي قد غنم سيفًا من أحد المماليك، ويظهر في الصورة وهو يستخدم مِبردًا لتخليص الذهب من مقبض السيف قبل أن يقوم بتذويب الذهب في سبيكة.

"هؤلاء الفرسان، الذين ارتدوا الملابس ذات الألوان المتنوعة والمبهرة، وأشهروا تلك الأسلحة اللامعة المتألقة، ليسوا كهؤلاء العربان الملاعين، الذين كان يتبعونا حتى ذلك الحين كما يتبع مصاصو الدماء *vampires* ضحاياهم. لم نستطع أن نخفي إعجابنا بالمظهر الجيد لهؤلاء المحاربين من المماليك - الذين كانوا بصدد اختبار أنفسهم لأول مرة ضدنا- بالإضافة إلى إعجابنا بسرعة خيولهم، وجرأتهم ورباطة جأشهم في تحركاتهم.

أمَّا لاڤال *Laval* فكان أكثر تحفُّظًا: "... على الرغم من أنهم كانوا أفضل الفرسان في العالم، إلا أنهم اختفوا تمامًا بعد المناوشات الأولى. إذ لم يعتادوا على رؤية التشكيل المربع، بحيث يُسند ضلع واحد من أضلاع المربع لكل فرقة على حدة. لقد قالوا إن الجنود الفرنسيين كانوا كتلةً واحدة، إذ تعلَّق كل واحد منهم بالآخر".

ومما لا شك فيه أن بونابرت كان قد تعلم العديد من الدروس العسكرية عبر القراءة المكثفة عن حروب الإمبراطورية النمساوية أو الروسية. ضد الدولة العثمانية قبل عقد واحد من الزمان، فقد استفاد بونابرت من استراتيجية التشكيلات القتالية المربعة التي استخدمت هناك ضد القوات العثمانية بنجاح. وقد أعجب دوجيرو *Doguereau* من فعاليتها: "تشكلنا على هيئة مربع. وقد ارتكزت المدفعية على الزوايا وفي المفاصل. أما الفرسان وسائر الأمتعة والذخائر فقد كانت في وسط المربع. وقد ضمن التشكيل على هذا النحو حشد الرجال مع قوة نيرانية هائلة تأتي من جميع الجهات. لقد فوجئُوا [أي المماليك] بهذا. وبالطبع كان ثمَّ عددٌ قليلٌ من

أبطالهم، ومن دون شك فقد شجَّع هؤلاء الأبطال بعضًا منهم على أن يحذوا حذوهم، ويهاجموا طلائعنا *tirailleurs*. وكان الموت هو الثمن الذي دفعُوه لقاء جرأتهم".



زي جنود الحملة أوائل عام ١٧٩٩. ذلك الزي الخفيف بات يعني أن الجنود قد أصبحوا بحاجة إلى المعاطف السميكة التي صُمِّمت لحماية الرجال ليلًا أو عند المبيت في العراء. وزي الجندي (على اليمين) يوضح الاستغناء تمامًا عن الصَّدرية.

وبعد فترة وجيزة من وقعة شبراخيت، قاتل المماليك الفرنسيين مجددًا في معركة الأهرام (إمبابة). وكشف بيرنويه *Bernoyer* النقاب عن أنه: "قبل يوم واحد من المعركة، أرسل بونابرت جاسوسًا ماهرًا، وقد أبلغه هذا الجاسوس عن حجم وموقف قوات العدو، بل وأوقفه على الطريقة / التي من المرجح أن يقاتل المماليك بها". ومجددًا صفَّ بونابرت رجاله على هيئة مربعات متفاوتة في الحجم. ومع ذلك، فإن المماليك لم يعتمدوا كُليًّا على الفرسان في هذه الجولة، بل عمدوا إلى نشر بطاريات مدافعهم في إمبابة بهدف استهداف التشكيلات الفرنسية المربعة بقصفها وبعثرة شملها. وسرعان ما أدرك دوجيرو *Doguereau* أن عدوه قد تعلم بعض الدروس من الجولة الأولى التي سبق أن جرت بينهم:

٤٦

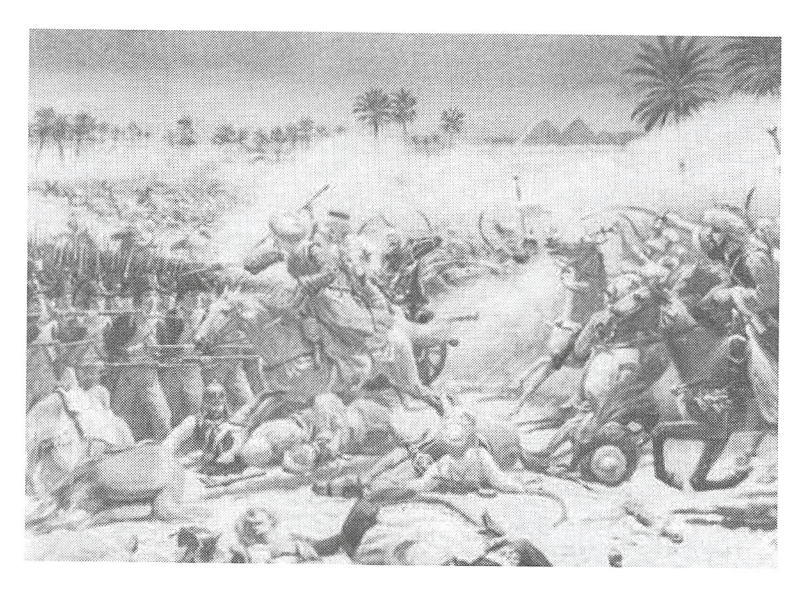
> "فتحت المدفعية المحصنة في الخنادق النار علينا، وكذلك كان ثمة دعم نيراني من مدفعية السفن في نهر النيل. وقد باغتنا ذلك للحظات. وكانت النيران مؤثرة بالفعل على القوات حيث طالت العمق، فأصابت بعض الصفوف المشكلة من خمسة أو ستة رجال فمزقتهم إربًا. لذا سرعان ما أُمرنا بالسير إلى الأمام عَدوًا لنقترب من العدو وننقض على تلك الخنادق. وقد ضاعفت فرقة بون *Bon* من خطوها، وأصبح الاشتباك من مسافة قريبة، وتمكَّنا من تطويق الخنادق على جميع الجهات، وأطلقنا النار على المماليك أثناء محاولتهم الفرار من تلك الخنادق".

وكان لاڤال *Laval* في خضم تلك المعركة: "وصلنا إلى معسكرهم وقد شرعنا حرابنا، واتجهنا إليهم للقتال وجهًا لوجه بالأسلحة البيضاء، ولم تجد

الغالبية منهم بدًّا من الهرب، حيث لم يجدوا وسيلةً للفرار من الموت إلا عن طريق رمي أنفسهم في النيل والسباحة صوب الشاطئ الآخر". وحتى أولئك الفارِّين الذين ألقوا بأنفسهم في الماء فقد استطاع عدد قليل منهم النجاة بنفسه: "... لقد ألقى كثيرون بأنفسهم في النيل، وقد أطلقنا النيران على آلاف من تلك الرؤوس التي رأيناها في المياه".

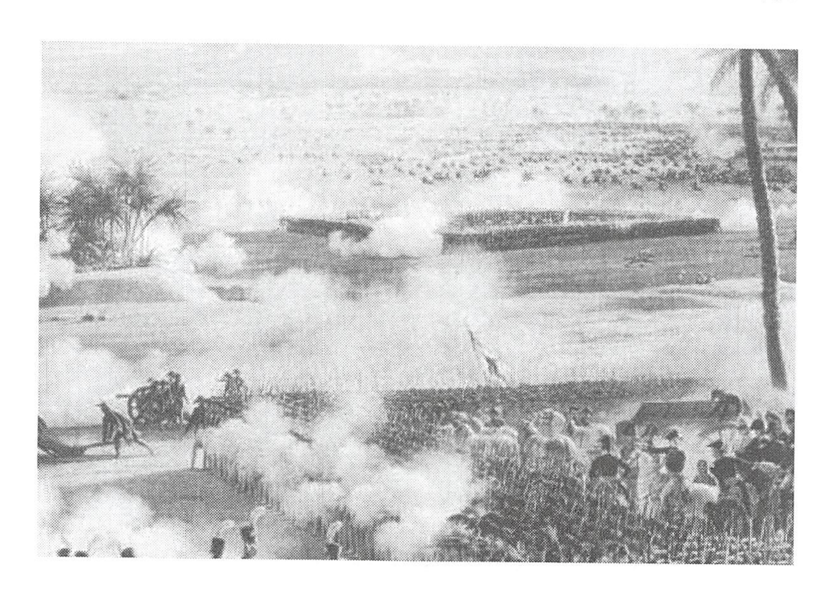
وسجل موران *Morand* هرب بعض المماليك من إمبابة:

"... احتشد غالبيتهم [يعني المماليك] تحت أسوار حديقة لم تكن بعيدة عن ميمنتنا. وتوقفت التشكيلات المربعة بين



يُدلل هذا المشهد - الذي رسمه روسيلو *Rousselot*- لمعركة الأهرام/إمبابة بوضوح على سرعة خيول المماليك الفائقة، وكذلك على عدم جدوى محاولاتهم الرامية إلى كسر المربعات الفرنسية اعتماداً على الفرسان وحدهم.

قريتين وقد أحاطت بهما الحدائق والبساتين التي كانت تحت حراسة جنود المماليك، فبادر المماليك إلى الاختباء عند قدومنا. وشاهدنا ثلاثة منهم جاءوا بهدف استطلاعنا على ما يبدو، وبعد أن قدموا تقريرًا عنا لقواتهم في المؤخرة، قرروا الهجوم علينا.... وبينما كان جنودنا يأخذون قسطًا من الراحة، ويشاهدون الهجوم على إمبابة. شاهد عدد قليل من الضباط والجنرالات تلك الحركة المباغتة المماليك التي كانت من السرعة بحيث أنه لم يكن هناك وقتٌ إلا لإطلاق النار فحسب.... وسقط عدد لا بأس به من الجنود في صفوفنا صرعى، حيث قاتلوا للنجاة بحياتهم بحرابهم. وأخيرًا وقع المماليك في مرمى نيران اثنتين من وحداتنا التي استولت على بعض الخنادق حيث نُصب مدفع هناك.... وقد نجح المماليك في اجتياز تلك الثغرة بين وحدتينا، إلا أنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم مبعثرين وفي مواجهة عدد كبير من جنودنا، الذين كانوا يبحثون عن الماء عبر البساتين المحيطة بهم، وكانوا عائدين لتوهم من هناك بعد سماعهم دوي إطلاق النار. وقد بوغتنا لرؤية رفاقنا في المواجهة، الأمر الذي دفعنا إلى وقف إطلاق النار، أو على الأقل الحد منه مع التصويب عاليًا.... وخلال تبادل إطلاق النار لم يتمكن المماليك من الهرب إلا من خلال ثغرة ضيقة، كانت تحت حراسة مفرزة من حملة البنادق الذين كمنوا هناك، فأطلقوا النار عليهم من مسافة قريبة".

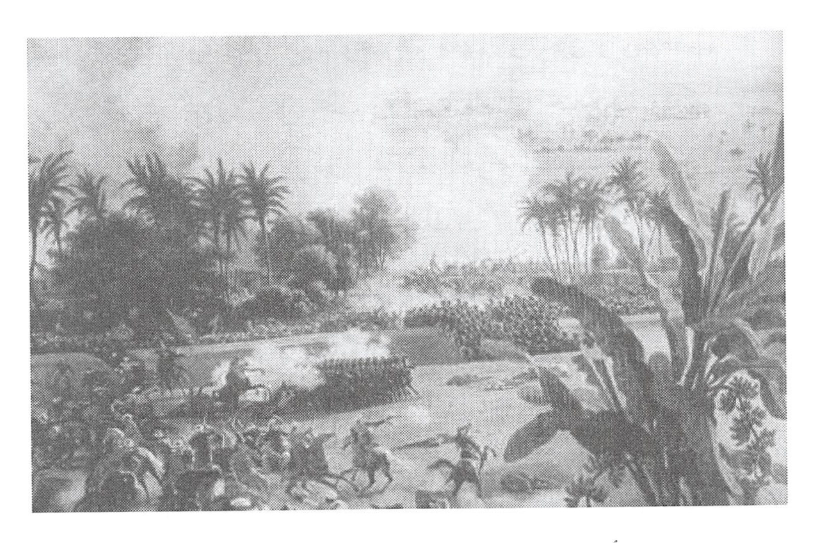


لوحة للوچين *Lejeune* تصور معركة الأهرام (إمبابة)، حيث تظهر عربة الذخيرة *caisson* وحيث يمكن رؤية الفرسان الذين احتموا داخل المربع، وكذلك رؤية المدفعية التي رُوعي وضعها على الزوايا والمفاصل الخارجية.

كما شهد موران *Morand* "مشهدًا مروعًا لبعض المماليك الذين اشتعلت النيران في ملابسهم بسبب البارود فأحرقوا أحياءً في عذابٍ مروع". ورأى بيرنويه *Bernoyer* كيف أن "مملوكًا ألقى سلاحه بعيدًا وحاول الهرب ركضًا بعد أن قُتل حصانه تحته. بيد أنه وقع بين اثنين من الرماة من قواتنا: وقد قطع أحدهما أذنه بعد أن أرجح سيفه في وجهه، بينما التقط الآخر غدَّارة المملوك القديمة ليقتله بها، لكن رفيقه نصحه بالتريث قائلًا له: "انتظر ريثما أتمكن من خلع ثيابه حتى لا تحترق" / عند هذا الحد تدخل بيرنويه *Bernoyer* وطلب من رفيقيه الرحمة للملوك. لكن ٤٧

ردَّهما جاء مرًّا وحازمًا: "أيها المواطن! ألم تشاهد تلك الحالة التي تركوا رفاقنا عليها على طول الطريق؟!".

كما شهد دينون *Denon* عملًا بربريًّا مماثلًا في سدمنت *Sediman*: "زحف أحد رجالنا من الجرحى الذين سقطوا أرضًا حتى وصل إلى جثة مملوك فأخذ يمثل بها محاولًا كسر العنق، عندها عنَّفه أحد الضباط قائلًا: "كيف يمكنك - وأنت في هذه الحال- أن تقدم على ارتكاب مثل هذا العمل الشنيع؟"، فأجابه ذلك الجريح قائلًا: "من السهل على هؤلاء الذين لم يصابوا بأذى الثرثرة حول الإنسانية، أمَّا بالنسبة لي، فلن يمضي وقت طويل قبل أن ألقى حتفي، لذا يجب أن أُعزِّي نفسي بكل السبل المتاحة".



تفصيلٌ منفصل عن معركة الأهرام (إمبابة) وتظهر الهجوم الفرنسي على خنادق المماليك في إمبابة. بحيث انفصلت السرايا من الرماة وحملة البنادق عن المربعات الرئيسية وبدأت بالتقدم والضغط على المماليك بغرض إسكات بطاريات مدافعهم، ودفعهم نحو النيل.

كما أشار الجنرال بليار *Belliard* إلى مشاهد مروعة عندما قال:

"كان علينا أن نترك بعض الجرحى من ذوي الإصابات القاتلة، حيث كان من المستحيل عليهم أن يتحركوا من أماكنهم دون معاونة. لقد ذرفوا الدموع، واستصرخوا زملاءهم مستجدين، كان جُل ما يطلبونه هو الموت بأيدٍ فرنسية، ولكن لم رفاقهم لم يمتلكوا الشجاعة الكافية للقيام بقتلهم قط، فمثَّل المماليك بهم. لقد غطى أحدهم عينيه بمنديل وانبطح على وجهه انتظارًا للموت.... أما الجنود المصابون بجروح قاتلة فقد شاهدوا بأم أعينهم فرقهم وهي تنسحب، وقد أمسك بعضهم بذيل معاطف رفاقه الذين لم يخذلوهم ولم يتخلوا عنهم وسحبوهم معهم. في حين رأى بعضهم أنهم غير قادرين على سحب رفاقهم، فاستلُّوا خناجرهم وقطعوا ذيول معاطفهم تاركين هؤلاء الجرحى التعساء ليواجهوا مصيرهم المحتوم على أيدي المماليك".

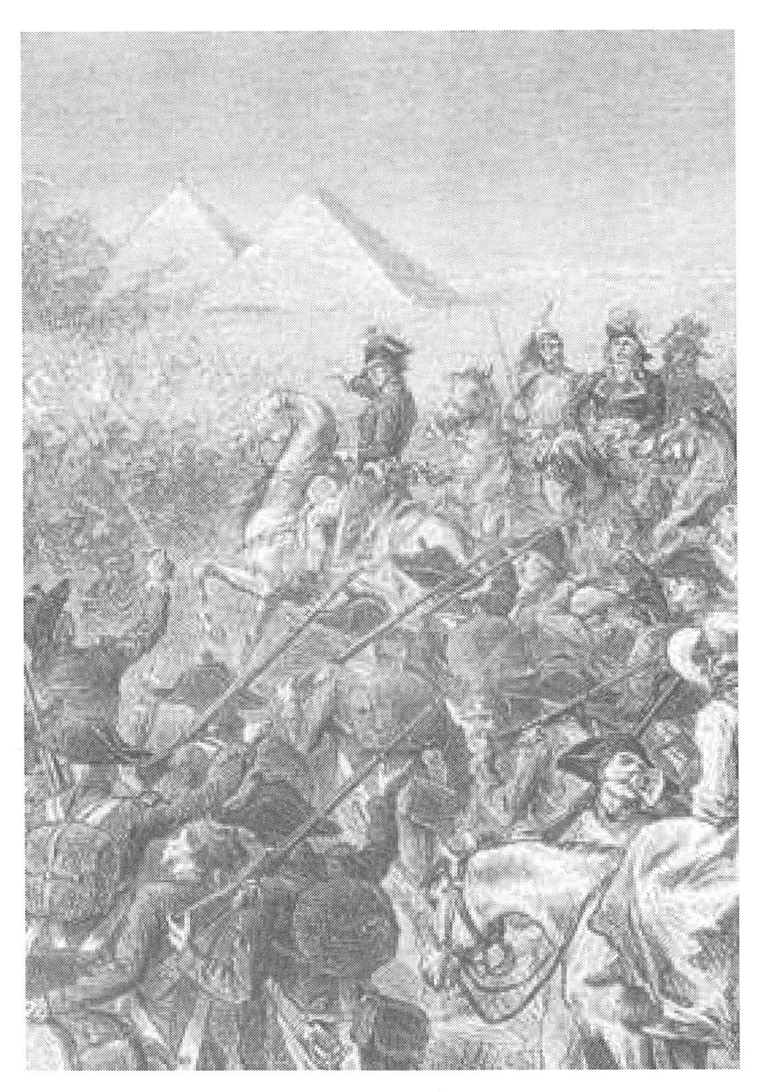
من جهة أخرى برهنت معركة سدمنت *Sediman* أن المماليك قد عدلُّوا التنسيق بين الفرسان والمدفعية. فقد شكَّل ديزيه *Desaix* ثلاثة تشكيلات مربعة، اثنتان منها كانتا تتألف من بضع مئات من الرجال فحسب. وشهد دينون *Denon* كيفية كسر المماليك لأحدها وتمزيق رجاله شر ممزق:

"... لقد توقفوا وتراجعوا [أي فرسان المماليك] لا يلوون على شيء كما لو كانوا ينوون الانسحاب من الميدان،

وفجأة تحولوا بالكلية إلى إحدى تشكيلاتنا المربعة، فأطاحوا به عبر هذا الهجوم الكاسح المباغت، بيد أن كل من لم يقتل من رجالنا على الفور - جراء هذا الهجوم المباغت- انبطح على الأرض، ومن ثم فقد كشف هذا التصرف الحصيف العدو أمام مربعنا الرئيسي. وقد استفدنا من تلك المفاجأة، فبادرناهم بالإطلاق السريع والمكثف للنيران، الأمر الذي جعلهم يتوقفون ويتراجعون. ومن ثم فقد انضم كل من بقي على قيد الحياة من المربع المكسور إلى المربع الرئيسي، وهكذا تمكنا من إخلاء الجرحى".

كما استُخدم تكتيك جديد في محاولة لكسر مربع شكَّله فوج البحارة *Légion Nautique*، حيث كان أهالي دمنهور قد ذبحوا حامية صغيرة مكونةً من ٨٠ جنديًّا، لذلك / توجهت مفرزة مكونة من ١٢٠٠ رجل من فوج البحارة بمن فيهم بارّاليه *Barralier*، بهدف الانتقام لهم: ٤٨

"عندما أصبحنا قبالة مدينة دمنهور، وعلى بعد ثلاث فراسخ *leagues* فحسب منها بدأنا باستطلاعها، ومن التلال المشرفة على المدينة أمكننا أن نرى تلك الغيوم من الرمال التي أثارها استطلاع العدو بدوره كعلامة على اقترابنا من المدينة. ترقبنا واصطففنا على هيئة مربع، وبعد ساعة من تلك الإشارات، احتشد العدو أمامنا مترجلًا، ثم غادرت الخيول المدينة، ومن ثم فقد شكلوا قوة كبيرة من المشاة الراجلة بحيث بات من المستحيل علينا اعتراضها. وفي محاولة من جانبنا لتقييم حجم القوة المهاجمة، نشر قائدنا طابورًا من الجند



ذكر بيرنويه *Bernoyer* أن بونابرت جمع جنرالاته قبيل معركة الأهرام، ليعطيهم أوامره الأخيرة قبل بدء القتال، وأنهى كلمته بالإشارة إلى الأهرامات، قائلًا: "اذهبوا، واعلموا أن أربعين قرنًا من الزمان تطل عليكم".

أمام المربع على خط المواجهة. ووضع أمامنا عشرة مدافع،

فانتظرنا اقتراب عدونا بثبات. لقد تألف جيش العدو من عدد لا حصر له من المماليك الذين كانوا على رأس المتمردين من السكان المحليين. وعندما أضحوا في مدى نيران مدفعيتنا المؤثر أطلقت مدافعنا ثلاثة كلل وعدد من القنابر، وكانت فعالة بيد أنها لم توقف تقدم العدو الذي واصل الزحف صوبنا، فأمرنا القائد بالحفاظ على هيئة المربع مع الانسحاب. وكان هذا الانسحاب منظمًا جدًّا حيث غطته نيران المدفعية... وكنتُ آنذاك في قوة الاستطلاع نسير عبر حقول القمح اللامتناهية، وسرعان ما أشعل العدو النار فيها بعد ساعة. فحملت الرياح على الفور اللهيبَ باتجاهنا، وخلفها واصل البدو مطاردتنا. وقد أحاط الدخان الكثيف بنا من كل جانب. لكننا كنا ما نزال نحافظ على انتظام قواتنا، مع أمل ضئيل في الإفلات من هذا الفخ المحكم. وفجأة وجد بعض جنود الاستطلاع *éclaireurs* قطعة من الأرض إلى اليسار مزروعة بالبصل. ومجددًا شكلت الكتيبة مربعًا فواجهت العدو من جميع الزوايا، وبدأت مدفعيتنا في قصف العدو قصفًا مكثفًا، وسرعان ما فقد العدو أكثر من ١٥٠٠ رجل جراء هذا القصف، في حين تفرق الباقون حول السهول.... كنا جميعًا، من القائد إلى الجنود منهكين وقد فتك بنا العطش والإرهاق، وألهبت الشمس وجوهنا التي اسودت جراء البارود والدخان الأسود الكثيف الناتج عن حرق حقول القمح".



رسم تخطيطي لدينون *Denon* يوضح شراسة القتال وحجم الدخان
الناجم عن إطلاق البارود من الأسلحة المختلفة

ولم تكن الوحدات المربعة الكبيرة تضمن دائمًا أداءً جيدًا في القتال، خاصة - وكما لاحظ بيرنويه *Bernoyer*- عندما استخدمت للمرة الأولى:

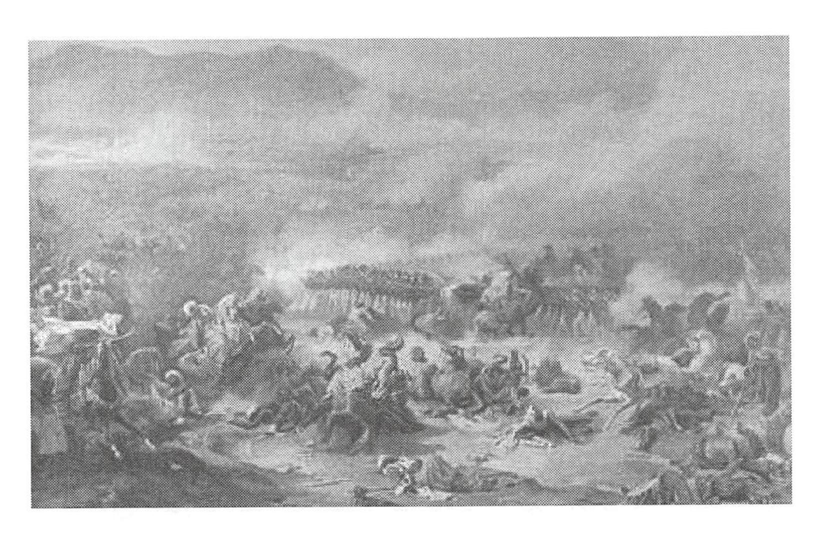
"كان هناك التباس كبير حولي، كما كان قائدنا مذهولًا، وقد وجد نفسه عاجزًا عن اتخاذ أي قرار. فأخذ قائد فوج الفرسان المبادرة في حشدنا". ونتيجة لذلك، صدرت الأوامر بالتدريب المكثف للقوات على هذا التكتيك قبيل الحملة على الشام:

"كانت قواتنا النظامية بحالة ممتازة وفي أحسن ترتيب. وتمرّسنا في كثير من الأحيان على المناورة على هيئة الكتيبة

المربعة. كما صنعنا لأنفسنا سياجًا من الرماح المسننة لحماية الصفوف الأمامية من غارات الفرسان، كانت تلك الرماح المسننة تثَّبتُ في الأرض أمام المربع، وقد رُبطت معًا في سلاسل صغيرة، وقد صممت خصّيصًا لصد غارات فرسان العدو. ولكن نظرًا لصعوبة نقلها وتركيبها مجددًا، إضافة إلى حماقة بعض الجنود في استعمالها، فقد أتلفنا عددًا كبيرًا منها، بحيث لم تعد صالحةً للاستخدام مجددًا".

وفي المعارك الضارية ظلت المربعات - حتى بدون هذا السياج من الرماح- منيعة، فقد شهد الجنرال كليبر *Kléber* وبصحبته ميشو *Michau* ذلك على نحو واضح في معركة عين شمس *Heliopolis*:

٤٩ / "أطلق العدو عدة قذائف مدفعية على تشكيلاتنا المربعة التي لم تصب بأذى. وسرعان ما هاجمونا بالسلاح الأبيض. نخفضنا حرابنا كما أطلقنا النيران من صفوفنا، فأجبرناهم على الفرار.... لقد كانت فرصة نجاة الطيور التي يطلق عليها الصياد النيران أقل مقارنة بمناورات الفرسان الأتراك المستهدفين من قبل مدافعنا.... ومع ذلك كان كل جندي من العدو يتبع ميوله الخاصة عند الكرِّ والفر، فأحدهم يلوح بحربته الطويلة، بينما يلوح الآخر بسيفه، فيما يطلق ثالث نيران غدارته أو مسدسه من خارج المدى المؤثر للنيران... كما كان هناك عدة فرسان امتلكوا الشجاعة الكافية للتقدم وغرس رايتهم على مسافة ٥٠ قامة *toises* فحسب أمام فرقة فيريان *Friant*. لكن طلائعنا *éclaireurs* سَرعان ما طاردوهم، فأجبروهم على الفرار".



صف كليبر *Kléber* -في معركة جبل طابور- قواته البالغة ٢٠٠٠ جندي في مربعين فحسب، وتمكن من الصمود لعشرة أضعاف هذا العدد، حتى وصل المدد بقيادة بونابرت نفسه، وفي النهاية تشرذم الجيش العثماني وولّى الدُّبر.

• السيف المستقيم في مواجهة السيف الأحدب:

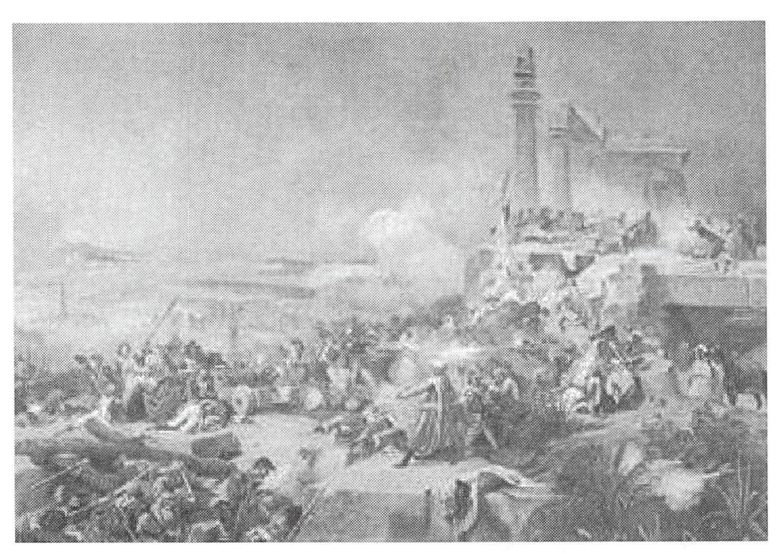
كتب الضابط الفارس معجباً بمهارة فرسان العدو في معركة الأهرامات قائلًا:

"لم يكن الجنرال بونابرت يريدنا أن نشتبك مع هؤلاء الفرسان المرعبين، محتجًا بأن عدد فرسانا كان واهيًا جدًّا مقارنة بالعدو، ومن ثم لم يكن بمقدورنا أن نشكل خطًّا دفاًّعيا من شأنه أن يتصدى لفرسان المماليك. وفي الواقع فإن هذا الحذر ربما كان هناك ما يبرره، إلا أنه سبَّب شعورًا بالخزي والعار ولا سيما بالنسبة لهؤلاء الفرسان المخلصين الذين

تطلعوا قدمًا إلى اللحظة التي يختبرون فيها سيوفهم المستقيمة ضد سيوف المسلمين الحدباء.... لقد رأينا أخيرًا هؤلاء الفرسان المهابين عن قرب، حيث حملوا سيوفهم الحدباء التي كان -كما يعتقد الكثيرون- بإمكانها أن تشق الرجل إلى نصفين، ومع صرخاتهم الوحشية ألقوا بأنفسهم على تشكيلاتنا المربعة، ولكن كُسرت كل هجماتهم على نصال حراب الرماة من قواتنا، في حين تمركز فرساننا داخل المربع قرب المركز وأطلقوا النار جنبًا إلى جنب مع قوات المشاة، واستمرت المعركة على هذا المنوال، حتى حانت تلك اللحظة التي شعر فيها فرسانهم بالضجر من هجماتهم العقيمة، فولى مماليك مراد بك الأدبار مسرعين خلف قائدهم فارين إلى الصحراء الواسعة. عندها صدرت لنا الأوامر بمتابعة فلول هؤلاء المنهزمين، فتمكنَّا من عدد يسير جدًّا منهم، وذلك لأنهم كانوا على ظهور تلك الجياد الرائعة التي أحبطت سريعًا جهودنا في ملاحقتهم".

كما شهد الضابط نفسه اشتباكًا عنيفًا ومباشرًا وقع مع فرسان المماليك:

"التقى سلاح الفرسان -من طليعة الجيش- قرب الصالحية بمؤخرة جيش إبراهيم بك الذي تألف من نحو ألف مملوك من النخبة. ودون النظر إلى العواقب، ألقى فرساننا البواسل بأنفسهم على العدو، فانخرطوا في قتال مسعور حيث كلَّل قائد السرب لاسال *Lasalle* - من الفوج



الجنود الفرنسيين يهاجمون مواقع للجيش العثماني في هليوبوليس

السابع/فرسان[١]- نفسه بأكاليل المجد، فأظهر بطولة نادرة في خضم هذه المعركة. ولكن فرساننا إلى جانب الفرسان من قوات الأدلّاء[٢] كانوا قلة، وما كانوا ليتمكنوا من الصمود في مواجهة هذا العدد الهائل من فرسان العدو، وسرعان ما بدأنا بالانسحاب، وذلك على الرغم من وجود القائد العام بيننا".

---

(١) الإيماءة هنا إلى الفارس أنطونيو شارل لويس دي لاسال *Antoine Charles Louis de Lasalle* الذي لقي حتفه - فيما بعد- في معركة واجرام *Wagram* بين فرنسا والنمسا في الخامس من يوليو عام ١٨٠٩، حيث تعدت خسائر الجيش الفرنسي يومها ٣٠ ألف قتيل أي ما يساوي تقريباً جيش الشرق بأكمله! (المترجم).

(٢) الحرس الخاص لنابليون *régiment des guides*. (المترجم).

شارك موران *Morand* أيضًا في هذا القتال، وتابع القول:

"رمينا بأنفسنا على العدو. وانضم الجنرالات وضباط الأركان وحتى الجنرال كفاريللي *Caffarelli* - على الرغم من ساقه الخشبية- للقتال في هذا الاشتباك. وكان القتال شرسًا للغاية، ونحن نعترف بأن المماليك هم أشجع وأمهر الفرسان في الكون / وأنه لا نظير لهم في البسالة والشجاعة. وعلى الرغم من تدني مستوى أسلحتنا وخيولنا مقارنة بهم. فقد كان لتلك المناوشات نتائج وخيمة، فلم يكن فرسان الفوج الثالث، الذين كانوا في الاحتياط، قد وصلوا بعد، ليشكلوا خطًّا يواجه المماليك ليعزلوهم عن بعضهم البعض بنيرانهم. ومع ذلك فقد كانت كفَّتُنا هي الراجحة. وكان هناك عدد من الجمال الباركة أرضًا إضافة إلى مدفعين لم يعودا صالحين للعمل، وقد تم تغطيتها جميعًا بجثث القتلى وأجساد الجرحى من الفرنسيين. من بين هؤلاء الأخيرون كان ديتري *Detrés* القائد الشجاع - من الفوج السابع فرسان- قد مزق إربًا بحيث تقاطعت الجروح العميقة والكبيرة في جسده. أما قائد السرب لاسال *Lasalle* فقد كان محظوظًا، إذ طار سيفه من يده، ولكن بلغ من رباطة جأشه -مع الحظ الوافر- أن استطاع استعادته في منتصف المعركة، ولم يتوقف عن الهجوم والدفاع عن نفسه وبقي سليمًا لم يمسه سوء".

٥٠

وأوضح ذلك الضابط الفارس كيف أثبتت قوة نيران الفرسان الدقيقة جدارتها حيث استطاعت مواجهة أعداد فرسان العدو المتفوقة،

كما هو الحال في الاشتباكات التي جرت خلال حملة الجنرال ديزيه *Desaix*: "وعندما اقترب العدو أطلقت الفصائل النيران بسرعة وبأعلى قدر ممكن من الدقة، وذلك لأنه ليس باستطاعتنا شن هجوم مضاد. لقد أعجب جميع الفُرسان بنيران الفوج الخامس عشر/فرسان "الذين أمروا بالتصويب، ثم نفذوا أمر الضرب كما لو كانوا في استعراض عسكري. ففي لحظة واحدة كان المماليك قد طاروا واختفوا في الصحراء بأسرع مما كانوا قد ظهروا".

• **مداهمة الأطراف:**

اعتمد الفرنسيون على فرض الضرائب على السكان المحليين لتمويل متطلباتهم، تماشيًا مع الأعراف السائدة في أوروبا آنذاك، وذلك على الرغم من أن تلك الضرائب لم تكن تدفع دائمًا عن طيب خاطر. ففي صيف عام ١٧٩٩، أُرسلت مفرزة من فوج البحارة *Légion Nautique* إلى قرية الرحمانية. ويذكر البحار السابق بارّاليه *Barralier*: "بمجرد أن وصلنا، شكلنا طابورًا للذهاب وإجبار سكان القرى المختلفة على دفع حصصهم. وكنت وقتها عريفًا في السرية الأولى بقيادة فارس من مالطا يدعى جالين *Galine*. وكان هذا الطابور يتكون من ٩٠٠ رجل من ذوي القوة والبأس. وقد انقسمنا إلى سرايا للذهاب إلى القرى المختلفة هنا وهناك. وكانت سريتنا تتألف من نحو ٢٥٠ رجل مدعومين بمدفعين من عيار ٦ رطل، وأخذنا طريقنا إلى كفر شباس *Caffra Chabass*[1]. وهي قرية يسكنها

---

(١) وتعرف اليوم باسم "شباس الشهداء" تخليدًا لذكرى شهدائها الذين سقطوا أثناء اقتحام الجنود الفرنسيين للقرية واستباحتهم لها. وهي تتبع الآن مركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ. (المترجم).

بعض البدو الذين رفضوا دفع حصتهم. سرنا ليلًا ووصلنا إلى أسوار القرية عند الفجر. ثم ثبتنا المدفعين بإزاء البوابة الرئيسية للقرية. وذهب نحو ٢٥ فرد استطلاع *éclaireurs* قدمًا من نقاط مختلفة وفتحوا النار على السكان الذين هربوا على الفور. بعدها رأينا جميع البدو المسلحين على امتداد جدران السور، والذين / قد فتحوا النار بدورهم على قواتنا. فأطلقنا المدفعين وأمطرنا السور بالكلل والقنابر، ومن ثم فقد فتحنا ثغرة كافية في السور. وتحركنا على الفور عدوًا، ودخلنا تلك القرية المتمردة، حيث لم نبق هناك ولم نذر. وبعد ربع ساعة من النهب، دق قارع الطبل *drummer* دقة الانسحاب *la retraite* لإعلام الجنود المنتشرين في القرية بإعادة تجميع صفوفهم مع الانسحاب سريعًا. فأضرمنا النار في منازل القرية وعدنا إلى جالين *Galine*. وقد صارت هذه القرية المحترقة عبرة لمن لا يعتبر، فتسببت بأكبر قدر من الرعب بين سكان القرى الأخرين الذين جلبوا لنا الطعام، وقبل كل شيء، الكثير من منتجات الألبان كلما اجتزنا بهم".

٥١

• **الحصار:**

سقطت العديد من المدن في أيدي الجيش الفرنسي على مدار ثلاث سنوات هي عمر الحملة. وكان في مقدمتها مالطا - ذلك الحصن المنيع- التي تركت عمليًّا أبوابها مفتوحة في وجه الفرنسيين. أما أولى أعمال الجيش الفرنسي في مصر فقد تمثل في الهجوم على الإسكندرية التي تطلبت القليل من الجهد للاستيلاء عليها. فقد اعتبر بيرنويه *Bernoyer* الاستيلاء على الإسكندرية مجرد "لعب أطفال". ولم يقع الفرنسيون في ورطة حقيقية إلا عندما شرعوا في غزو الأرض المقدسة. فأولًا في العريش، وثانيًا في غزة، حيث عرقلت المقاومة هناك تقدمهم إلى حدٍّ كبير. ثم لم يلبث أن انفجر

إحباط الجنود المتزايد في يافا أخيرًا، ولا سيما وقد ذهب الجنود الفرنسيين إليها وهم مُتهيِّجون.

فكما جرت العادة، أرسل بونابرت مبعوثًا إلى متولي المدينة ليعرض عليه شروط التسليم، وبعد لحظات، استطاع بيرنويه *Bernoyer* أن يرى أن "رأس الضابط قد عُلقت على سور المدينة. وعلى إثر مرأى هذا العمل الوحشي، لم ينتظر جنودنا الأوامر لشن الهجوم". أُطلقت المدفعية لاختراق جدران أسوار يافا. حيث ذكر دوجيرو *Doguereau* الذي كان ينتظر بدء الهجوم بفارغ الصبر:



قاد الجنرال جونو *Junot* حفنةً من الفرسان والرماة الفرنسيين في قتال يائس مع الجيش العثماني وجهًا لوجه في معركة الناصرة/ *Lubya*. وعندما قام الإمبراطور نابليون (لاحقًا) بمنح جونو لقب "دوق"، داعبته فكرة تلقيبه بـ "جونو الناصري"، ولكنه - وبعد تفكير عميق- عدل عن تلك الفكرة بدعوى إمكانية وقوع الخلط بينه وبين شخص آخر.

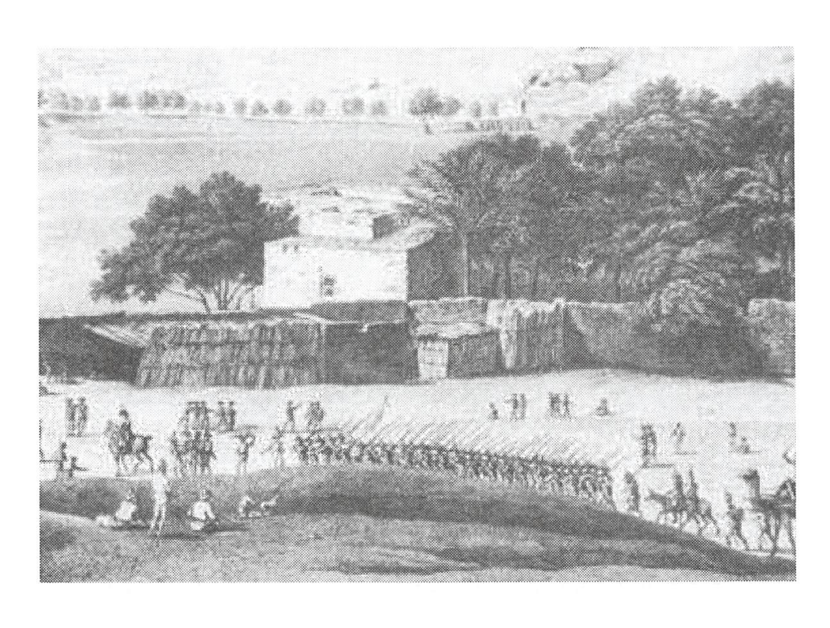
"بعد ساعة، رأى بونابرت أن الثغرة التي أحدثتها مدفعيتنا في الأسوار أصبحت قابلة للاختراق. فاتخذنا وضعيةَ الهجوم. وذهب نثروود *Netherwood* - وهو ضابط سويدي برتبة مقدم- في طليعة القوات مع ١٠ من الجنود المسلحين بالبنادق القصيرة *Carabiniers*، وسرعان ما تبعته ثلاث سرايا من المشاة. وحاربنا لفترة طويلة في سبيل اختراق المناطق المحيطة بالثغرة وتطهيرها، والاستيلاء على الأبراج على طول الجدار.... وعند الساعة الخامسة أصبحنا في قلب المدينة. في حين فر العدو في حشود كبيرة باتجاه البحر، وألقوا بأسلحتهم خلفهم. ولكن - لسوء حظهم- لم يجدوا هناك أية قوارب جاهزة للإبحار الفوري، فرمى الهاربون أنفسهم تحت أقدام المنتصرين، فوقعت مجزرة رهيبة. فلثمان وأربعين ساعة، ذاقت تلك البلدة ما هو أكثر من ويلات الحرب نفسها. وليس بإمكاني تصوير تلك المشاهد فوق البشعة، حيث اكتظت الشوارع بالجثث. وحيث يمكن أن يرى الأطفال المذبوحين ملقون على صدور أمهاتهم، وحيث يمكن سماع عويل النساء اللائي فقدن أزواجهن".

وكتب جندي المشاة من القنّاصة *chasseurs* ميلّيه *Millet* قائلًا:

"انفجر الغضب في عيون الفرنسيين، فذبحوا كل من وجدوا من سكان المدينة دون استثناء، ولم يلعب العمر أو الجنس دورًا يذكر في استثناء أحد منهم من الذبح، فلم تكن ثمَّ مذبحة أكثر بشاعة من تلك المذبحة".

كما شهد بيرنويه *Bernoyer* بقوله:

"انتقمت قواتنا لمقتل مبعوثنا، وعلاوة على ذلك، فقد انتقمنا من تلك الوقاحة العنيدة التي أبدتها القوات المدافعة عن المدينة، حيث لم يلقوا بأسلحتهم إلا بعد أن كبدونا خسائر فادحة. لقد كان هذان هما السببان الجوهريان اللذان كمنا خلف تلك المجزرة المروعة التي أوقعناها بالحامية جنباً إلى جنب مع سكان المدينة التعساء".



مفارز من القوات الفرنسية التي أُرسلت لجمع الضرائب أو كحاميات للمواقع البعيدة والمتطرفة التي كانت دائمًا مهددة سواء بالانتفاضات المحلية أو الهجمات المباغتة من قِبل العُربان.

وعلى إثر تلك المذبحة، عرض بونابرت الاستسلام على الناجين مقابل الأمان، فقبلوا عرضه واستسلموا وألقوا عنهم أسلحتهم، ووثقوا في وعده لهم أن يحملهم إلى حيث مأمنهم قرب الحدود السورية. / فغادروا ٥٢ مواقعهم وهم عُزَّل من السلاح. فقادهم الجنود الفرنسيون إلى شاطئ البحر، حيث اصطفَّ ستة آلاف منهم هناك انتظارًا لإعدامهم واحدًا تلو الآخر.... "لقد رأينا الجنود يأتون واحدًا تلو الآخر إلى المخيم، يحملون شتى أصناف السلع التي غنموها. بيد أنني ما رأيت في حياتي بأسرها مشهدًا مثل هذا!... فقد جلب جنودنا معهم عددًا كبيرًا من الفتيات الصغيرات أو الشابات اليافعات إلى المخيم، وسرعان ما أصبح مخيمنا ساحة للشقاق والنزاع اللذين وقعَا بينهم بسبب هؤلاء النسوة. وبعد أن أُحيطت القيادة علمًا بتلك المشكلات التي سادت في المخيمات بسبب هؤلاء السبايا اللاتي أحضرهن الجنود معهم من يافا، أمر بونابرت جميع الجنود ممن سبوا النساء بسرعة تسليمهن على الفور إلى محكمة لازريه *Lazaret*، أو مواجهة عقوبات صارمة للغاية في حال الإصرار على مخالفة هذا الأمر. وتم تنفيذ هذا الأمر بسرعة كبيرة. ففي كل مكان حولنا أمكننا أن نرى هؤلاء البائسات اللائي قُدن للعودة الى أنقاض المدينة حيث كان بإمكانهن أن يجدن الملاذ هناك. لكن تلك الأوامر لم تردع سرية من القناصة *chasseurs* عن حشد سباياهم من النساء وإعدامهن بإطلاق النار عليهن!".

الخسائر في جنود الحملة

(١٩ مايو ١٨٠٠ - ٢٢ سبتمبر ١٨٠٠)

القتلى في المعارك:	٣٦١٤
المتوفون متأثرون بجراحهم:	٨٥٤
القتلى في الحوادث المتفرقة:	٢٩٠
الموتى بسبب الأمراض المختلفة:	٢٤٦٨
الموتى بسب الطاعون:	١٦٨٩
إجمالي عدد الضحايا:	٨٩١٥

أما عن حصار عكا فقد كان مختلفًا تمامًا عن كل ضروب الحصار السابقة. فالحاكم العثماني، وهو جلاد بوسنيٌّ سابق ويدعى أحمد الجزار *Aḥmed al-Djezzār* بمعاونة صادقة من القائد البريطاني، سيدني سميث *Sidney Smith*، ومعه مهاجر فرنسي - وزميل سابق لبونابرت في أكاديمية برين *Brienne academy*- ويدعى لويس فيليبو *Louis Phelipeaux* قد أظهروا عزمًا لا يلين على مقاومة بونابرت. ووصف لاڤال *Laval* تلك المشاكل التي واجهها بونابرت في هذا الحصار:

"عدنا إلى المخيم في عكا في الرابع والعشرين من نيسان، وبعد أن حاولنا فتح ثغرة في الأسوار، قمنا بشن ثلاث غارات في ذلك اليوم، حيث كانت الثغرة معبأة بالجثث وأُجبرنا على

الانسحاب في نهاية الأمر على أثر تلك الخسائر الفادحة التي وقعت في صفوفنا".

كما تحدث دوجيرو *Doguereau* عن تلك الإجراءات التي اتخذت للتخفيف من أثر ذلك النقص الحاد في طلقات البنادق:"اضطررنا لجمع كل السجلات والدفاتر في المخيم، وسحبنا البارود من ذخيرة المدفعية. ولأكثر من ١٥ يومًا ظلت فرق المشاة تعاني نقصًا حادًّا في خراطيش البنادق التي كانت على وشك النفاد". كما كانت هناك تداعيات لنقص البارود على المدفعية أيضًا، كما ذكر بيرنويه *Bernoyer*:

"بعد أن أوشكت قذائف المدافع على النفاد، اضطررنا إلى خفض معدلات إطلاق النار. وكان ينبغي علينا جمع كُلل المدافع التي كان العدو يطلقها علينا لنواصل نحن إطلاق النار عليهم. ولتشجيع جنودنا على جمعها، قُدمت لهم مكافأة قدرها خمسة سو *Sous* [(١)] لكل كُلة، يتم تسليمها لرجال المدفعية! لقد كان ذلك عملًا مستحيلًا حقًّا، وأمر لا يمكن تصوره، ولكن المكتوب مقدور! تعقب جنودنا كل المدافع التي كان العدو يطلقها عليهم فجمعوها وسلَّموها لرجال المدفعية".

---

(١) عملة فرنسية قديمة. (المترجم).

أوضاع جيش الشرق بعد الإبرار البريطاني

(١٨ مارس ١٨٠١ - ٣٠ أغسطس ١٨٠١)

القتلى في المعارك والموتى المتأثرون بجراحهم:	٣٠٠٠
ضحايا الطاعون أو الأوبئة المختلفة:	١٥٠٠
الأسرى:	٣٥٠٠
الجنود المستسلمون في القاهرة:	١٣٦٧٢
الجنود المستسلمون في الإسكندرية:	١٠٥٠٨
المجموع:	٣٢١٨٠

وفقًا لوثيقة الاستسلام التى وقعتها حاميات القاهرة والإسكندرية، أعاد البريطانيون أكثر من ٢٤,٠٠٠ جندي فرنسى إلى وطنهم، بالإضافة إلى نحو ٧٦٨ مدني شملهم الاتفاق.

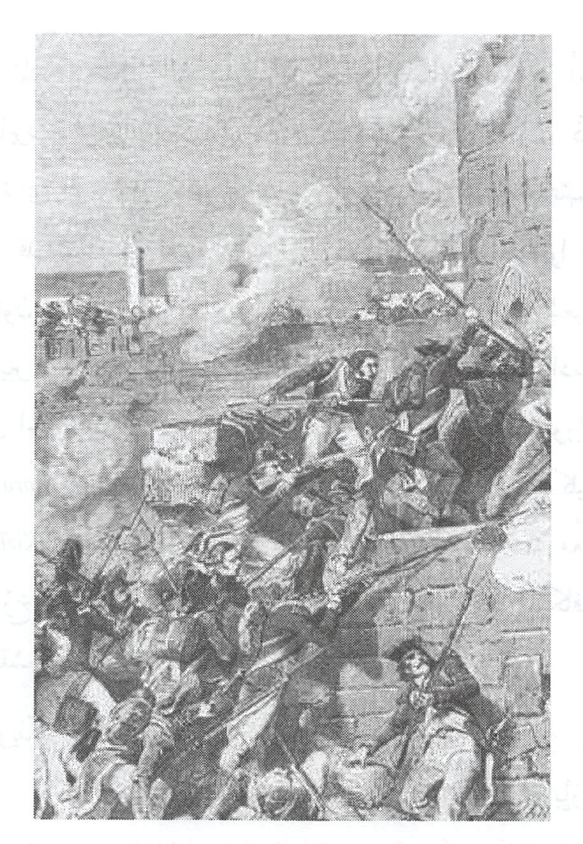
وكان الكيل قد فاض بالجنرال كليبر *Kléber* عقب عودته منتصراً من معركة جبل طابور، إذ أوضح صراحة - وعلى الملأ- استياءه من إدارة بونابرت السيئة لحصار عكا، فيذكر بيرنويه *Bernoyer*:

"لقد قال كليبر *Kléber* لبونابرت، وفي وجود عدد من الشهود: "أيها الجنرال! لو لم أكن متيقنًا أن بونابرت هو من يقُودنا، لجزمتُ بأن تلك الأعمال - التي نقوم بها هنا- من تخطيط بعض الصبية الهواة". وفي خضم يأس الفرنسيين

- المتنامي- من الاستيلاء على ذلك الميناء الحيوي، أمر بونابرت الجنرال كليبر *Kléber* بقيادة الحصار. حيث ذكر ڤيرتراي *Vertray* "كان العديد من الجنود قد فقدوا شجاعتهم، كما قد تضاءلت ثقتهم في بونابرت، حتى إنهم أصبحوا لا يبالون بالتذمر علناً وبالجهر بالحديث عنه بما يكره. أما شعبية كليبر *Kléber* - فكانت على العكس من ذلك- فقد ازدادت بين الجنود أكثر من أي وقت مضى". وكتب تشارل موران *Charles Morand* الذي كان من بين ضباط أركان كليبر *Kléber*:"لقد أمر الجنرال بتجميع الرماة في مخيم واحد معًا، ووزع عليهم بضع زجاجات من البراندي من باب المكافأة والتشجيع لهم على محاولاتهم الأخيرة".

٥٣ / ويذكر لاڤال *Laval*:

"كان العدو قد شيَّد بعض الخنادق خارج البلدة بإزاء مواقعنا، وقام بحمايتها بعدة غارات يومية. وقد عقدنا العزم على الاستيلاء عليها ليلة ٧-٨ مايو. واضطلع جنود الاستطلاع *éclaireurs* بهذه المهمة. ونجحنا في الاستيلاء عليها بالفعل، ولكنها كانت قريبة من الأسوار ومن ثم كان من المستحيل علينا التمسك بها. فقد أجبرتنا تلك الكلل والقنابر التي كانت تنهمر على رؤوسنا من الأسوار على الجلاء عن تلك الخنادق. وفي مساء يوم ٩ مايو، حاولنا مجدداً. وكنت في هذه الحملة. وصدرت إشارة التنفيذ في الحادية عشرة مساء. واقتربنا - زاحفين على بطوننا- إلى مسافة عشرة



الجنود الفرنسون يقتحمون الأسوار المتداعية للإسكندرية بعد وقت قصير من عملية الإبرار.

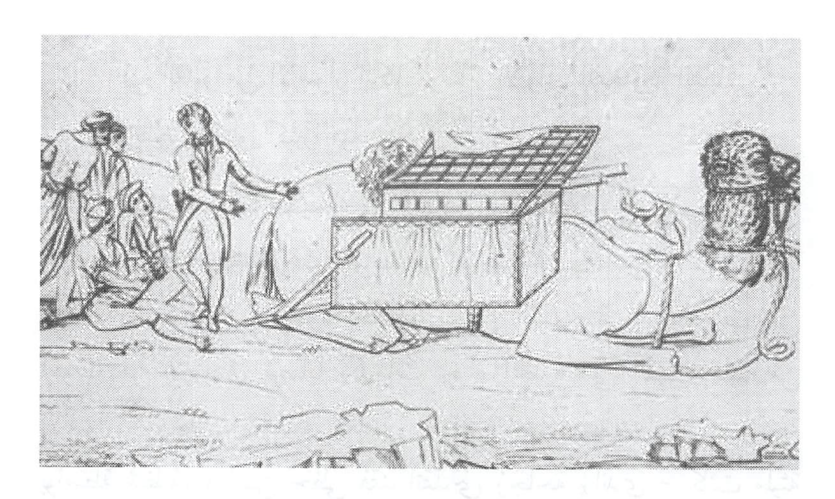
خطوات فحسب من العدو، حيث توقفنا انتظارًا لإشارة البدء بالاشتباك. ولم يلبث أن انطلق صاروخ في الهواء من مواقعنا في الخلف. فقفزنا كالأسود إلى قلب خنادق العدو. فقتلنا منهم وقتلوا منا، وقطعنا رقابهم وقطعوا رقابنا، وأثخنّا فيهم وأثخنوا فينا. وأخيرًا تمكن عدد قليل من الأتراك من الهرب، وبقينا أسيادًا على أرض المعركة حتى الفجر. بعدها

ألقى العدو من الأسوار الكلل وسائر الأواني الفخارية القابلة للانفجار فقتلوا كثيرًا منا.

كانت خسائرنا عظيمة، فمن الحادية عشرة ليلًا وحتى شروق شمس اليوم التالي فقدنا خمسة عشر ضابطًا من فوجنا فحسب، بمن في ذلك قائدنا بويه *Boyé*. وقد لقي الجنود حتفهم بنفس النسبة تقريبًا. وتمكنتُ من الهرب من الخنادق مصابًا بكدمات جراء الحجارة التي أُلقيت علينا من الأسوار. ووجدت حقيبة معداتي - التي أحملها على ظهري- مثقوبة بواسطة شظية، ولحسن حظي فقد أنقذتني زجاجة براندي - كانت مليئةً عن آخرها- من إصابة محققة.... وقد بقي هناك عدد قليل من الجنود، وكلهم إما قتلوا أو جرحوا فيما بعد. وأخيرًا جمع الجنرال القادة لمناقشة الجدوى من هجوم آخر. وتقرر الهجوم مجددًا، ومجددًا استطعنا الاستيلاء على الخنادق. ومجددًا أيضًا تم إرغام القوات المتمسكة بها على الانسحاب فعادوا إلى خطوطنا يجرون أذيال الخيبة. وأخيرًا لم يعد جنودنا على استعداد للقتال ثانية".

ويتفق ڤيرتراي *Vertray* مع لاڤال:

" ألقينا بأنفسنا على خنادق العدو، ومع تلك الاندفاعة الفائقة للضباط والجنود معًا اكتسحناها في لحظات. وواصلنا القتال بشراسة حتى فجر اليوم التالي. وعلى الرغم من خسائر قواتنا الهائلة، أمر بونابرت باستمرار الهجوم.... ". "فصيلتي قد أُفنيت عن آخر رجل فيها" هكذا اختتم لاڤال *Laval* حديثه باقتضاب وتجهم، ثم أردف: ".. وفي العاشر من مايو حاولنا مرتين إضافيتين، ولكن نظرًا لعدم وجود العدد الكافي من الجنود، اضطررنا لرفع الحصار عن عكا".



"جمل الإسعاف"، كان الجرّاح لاريه *Larrey* هو صاحب هذه الفكرة. فعند الانسحاب من عكا، تكدس الجرحى على عربات المدفعية والذخيرة، في حين تم حمل العديد من الجرحى الآخرين على النقالات على أمل ألا يخذلهم رفاقهم من الحمّالين.

وعلى الرغم من أن القوات الفرنسية كانت قد اخترقت الدفاعات الخارجية لعكا بالفعل، إلا أنها سرعان ما اصطدمت بخطٍّ دفاعيٍّ ثان تم تشييده خلف الخط الأول. ومع قدوم التعزيزات العثمانية التي كانت تصل عن طريق البحر، إضافة إلى أثر الطاعون الذي استشرى في صفوف الجيش الفرنسي المُحبَط، فقد حذر الجنرال مراد *Murat* نابليون من أن يلقب هو الآخر "بالجزار" ولكن بالنسبة لجنوده. لقد كان الأوان قد آن كي يعترف بونابرت بفشله، وأن عليه العودة إلى القاهرة.

• الانسحاب من عكا:

انسحب الفرنسيون انسحابًا مذلًا بعد فشلهم في اقتحام عكا، لم يماثله إلا انسحابهم مجددًا من أمام موسكو عام ١٨١٢. وعقب قرار بونابرت



اقتدى معظم الضباط ببونابرت عند الانسحاب من الشام إلى مصر، فقدموا خيولهم للمساعدة في إخلاء الجرحى وساروا على الأقدام جنباً إلى جنب مع جنودهم (١).

برفع الحصار عن عكا، استدعى كبير أطبائه ديجنيت *Desgenettes*، وطالبه بإعداد خطة لإخلاء الجرحى والمصابين بالطاعون. وسجل بيرنويه *Bernoyer* رد الطبيب، الذي حدد مصير عدد كبير من الجنود:

---

(١) يظهر في الصورة الجنرال كفاريللي *Caffarelli* ذي الساق الخشبية (الذي أطلق عليه المصريون اسم أبو خشبة) مُنهمكاً في الحديث مع جنرال آخر. وهذا خطأ، فمن المؤكد أن كفاريللي قتل في حصار عكا يوم ٢٧ من أبريل/ نيسان عام ١٧٩٩. انظر:- الجبرتي، مظهر التقديس، ١: ٢٨٩-٩٠. قارن أيضاً:

Guémard, Gabriel: *Essai de bibliographie critique de l'Institut d'Égypte et de la Commission des Sciences et Arts,* B.I.B, (Vol. 6. 49).

ومن ثم فإن كفاريللي لم يكن ضمن العائدين الشام، حيث دفن في عكا وما زال قبره معلماً هناك حتى يومنا هذا. (المترجم).



جان بابتيست كليبر *Jean-Baptiste Kléber* (١٧٥٣-١٨٠٠). ولد في ستراسبورغ *Strasbourg*، وخدم ضابطًا في الجيش النمساوي (١٧٧٧-١٧٨٥) قبل أن يحتل لاحقًا مكانةً بارزة في الحرس الوطني بعد الثورة الفرنسية. استاء من قرار بونابرت بالعودة إلى فرنسا وترك قيادة جيش الشرق له. لكنه كان محبوبًا من الجنود. وغضب بشدة بعد إعلان بريطانيا موقفها الرافض لمعاهدة العريش، والتي كان يأمل أن يعيد من خلالها الجيش إلى الوطن. وفي اليوم نفسه الذي انتصر فيه بونابرت في مارينجو *Marengo*، طُعن كليبر حتى الموت على يد أحد المتعصبين من القُدس.

"جنرال: في الواقع أنا لا أرى أية إمكانية لإخلائهم. إذ ليس من الحكمة أبدًا افتضاح نبأ تفشي هذا المرض الرهيب في صفوف جنودنا. ولا أرى أي وسيلة أخرى سوى أن نتركهم هنا لمصيرهم سبيلًا للتعامل مع هذا الوضع الخطير. أقرُّ بأن قرارًا كهذا هو قرار قاس / كما أنه يفتقر إلى الإنسانية، ولكن الضرورات تبيح المحظورات. ومن المؤكد أنه ليس أمامنا خيار آخر، إلا أنه بإمكاننا أن نخفّف عنهم باتخاذ إجراء وحيد، وهو أقل وحشية على كل حال. إذ بمجرد أن يدرك العدو انسحابنا، فسوف يبادر إلى احتلال مخيمنا ومستشفياتنا. ومن ثم سيقدم على ذبح أولئك الجرحى والمصابين -الذين سيقعون في أيديهم لا محالة- دون رحمة. لذا يمكننا أن نلجأ إلى خيار "الموت الرحيم" الذي يمكن أن يتم على أيدينا نحن. وبدون ذلك فإننا يمكن أن نُعرضهم لمعاناة أكبر بكثير. أعتقد، والحالة هذه، أنه في سبيل إنقاذهم من المعاناة على يد عدو همجي، وباسم الإنسانية لابد لنا من وضع كمية كافية من الأفيون في المرق، عشية يوم الانسحاب، ليرقدوا على أثرها إلى الأبد".

٥٤

وعلى الرغم من تلك المزاعم التي اصطُنعت من قبل أولئك الذين أقدموا على ذلك، ثم تنصَّلوا من الأمر برمته لاحقًا(١)، فقد تم الاتفاق

---

(١) وعلى رأسهم نابليون الذي ورد فيما نُسب إليه من مذكرات ما ترجمته: "... لا شك عندي أن قصة التسمم هذه كانت من اختراع دِن *Den*--- (بياض في النص الأصلي!). وكان ذلك الثرثار قد فهم القصة على المحمل السيء، ثم =



اكتنف جلاء القوات الفرنسية عن مصر على متون السفن البريطانية كثيرًا من المشاعر المتضاربة بين صفوف المصريين الذين قدموا الدعم للقوات الفرنسية، إذ توقعوا التنكيل بهم على أيدي العثمانيين والمماليك في أعقاب رحيل حلفائهم(١).

على هذا الإجراء القاسي ونفذ سهم القضاء. فقد سجلت مذكرات كليبر *Kléber* ما نصه: "لقد اقترح الضباط من الأطباء إعطاء الأفيون للمرضى

= كرها على نحو أسوأ. وبادئ ذي بدء فأنا لا أعتقد أن تقديم الأفيون للمصابين يعد جريمةً. بل على العكس من ذلك، فهذا لا يعدو أن يكون رضوخًا لما يمليه العقل. فأين هذا الرجل الذي لم يكن يفضل الموت الفوري – في ظروف كهذه- على أن يتعرض لحلقات طويلة من التعذيب على أيدي هؤلاء البرابرة؟ لنفترض أن طفلي كان هناك، وكنت أحبه أكثر من أي أب آخر أحب ابنه. وقد وقع هذا الطفل ضحيةً لمثل تلك الظروف، فإن نصيحتي ما كانت لتتغير أبدًا. بل لو كنت أنا نفسي من بين هؤلاء المصابين، فسأطالب أن أُعامل هكذا"!!. انظر:-
Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, *The Life of Napoleon Bonaparte,* (London, Carey and Lea, 1832), 139. (المترجم)

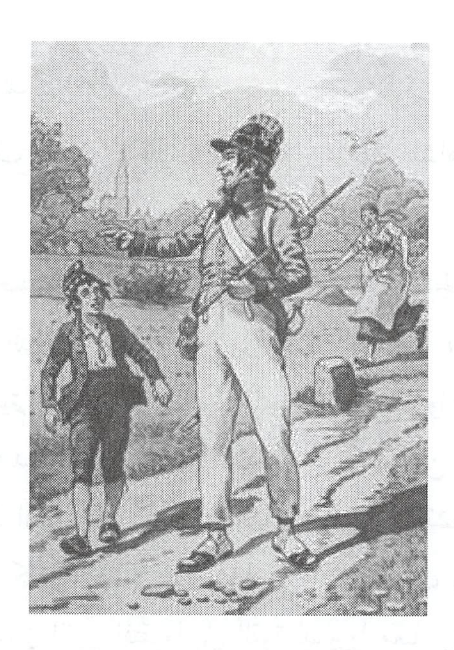
والجرحى المصابين بإصابات خطيرة".

كما وصف الملازم لاڤال *Laval* الحزين، تلك المشاهد التي أعقبت ذلك:

"أصدرنا أوامرنا للمستشفى كي تُخرج الجنود من الجرحى الذين يتحملون السير إلى بلدة الطنطورة *Tantura*، حيث سيتم إركابهم على الخيول المصادرة والبغال والحمير. ومع ذلك، فقد كان لزامًا علينا ترك عدد كبير من المصابين بالطاعون الذين كان يتوجب علينا نقلهم من مستشفى جبل الكرمل. كما تركنا هناك عددًا مماثلاً في المخيم، حيث رقد عدد من المصابين الذين افتقروا إلى القوة ليسيروا معنا. ولم يحدث قط أن رأى امرؤ مثل هذا المشهد، حيث كان بإمكانك أن تسمتع إلى هؤلاء التعساء المستلقون في خيامهم، وقد فقدوا القدرة على الحركة، وواصلوا البكاء والاستجداء بقولهم: "لا تتخلوا عنا أيها الرفاق، سنذبح كالنعاج على أيادي الأتراك".

---

(١) حرص الفرنسيون على إدراج نص في اتفاقية العريش بقصد ضمان سلامة السكان المحليين الذين قدموا يد العون للقوات الفرنسية، أو عملوا لديهم أو خدموهم على نحو أو آخر. وهو بحسب تعبير الجبرتي: "لا يحصل التشويش لأحد من سكان الإقليم المصري، من أي ملة كانت، وذلك لا في أشخاص ولا في أموالهم، نظرًا إلى ما يمكن أن يكون قد حصل من الاتحاد بينهم وبين الفرنساوية بزمن إقامتهم بأرض مصر". انظر: مظهر التقديس، ٢: ٣٥٢. (المترجم).



أحد المحظوظين من الناجين العائدين إلى وطنهم. تجدر الإشارة إلى أن ثلث رجال الحملة لقوا حتفهم في مصر أو الشام.

ويبدو أن هذا المشهد قد تكرر كثيرًا وفقًا للجنرال كليبر *Kléber* الذي ذكر ما نصه: "دعا أحد المشاة من الفوج التاسع عشر -الذين تفشى فيهم الطاعون- واحدًا من رفاقه، وتوسل إليه أن ينهي حياته. ومع الكثير من الحزم ورباطة الجأش، أدى له رفيقه هذه الخدمة". ووصف الرقيب بونيفونس *Bonnefons* مشهدًا يائسًا مماثلًا:

"كان مشهدًا يُرثى له حقًّا، فرؤية هؤلاء الرجال من أنصاف الموتى، وهم يطلبون منك باسم الإنسانية مد يد العون وعدم التخلي عنهم وتركهم لمصيرهم التعس. وعلى الرغم من الوزن الهائل من الذخائر فقد حملنا كثيرًا منهم على عربات المدفعية. وقد أدى هذا إلى تباطؤ مسيرتنا إلى حد كبير".

وتم توزيع المرق - الذي وضع فيه الأفيون- على المصابين بالطاعون في مستشفى جبل الكرمل عشية انسحاب الجيش. سمع ڤيرتراي *Vertray* شائعات من هذا القبيل:

"لقد سقط عدد كبير [من المرضى] في أيدي الإنجليز. أما بعضهم الآخر، فقد قيل لي إنهم أصيبوا بالتسمم بناءً على أوامر بونابرت. أما بالنسبة لي، فلست على يقين من أنه تم تنفيذ هذا الأمر الوحشي، لكنني أعرف أن العديد من المرضى كانوا يعرفون ما ينتظرهم، فقد هربوا من المستشفى وسبحوا وسلموا أنفسهم إلى السفن البريطانية".

بيد أنَّ القاطع البات في هذا السياق كان رواية بيرنويه *Bernoyer* التي أخذها من فم الجندي لالمان *Lallemand*، الذي كان قد غادر المستشفى ونجا بحياته في الأخير:

"أخبرني لالمان *Lallemand* أنه تم توزيع المرق المسمم بالأفيون على الجنود المصابين بالطاعون عشية انسحاب الجيش. / إلا أن الأب ياڤرين *Yvarin*، من أڤينيون *Avignon*، كان يعرفه جيدًا، قد حذره من شربه. لذا فقد سكب الحساء في وعاء عنده ولم يتذوقه البتة. وفي الليل، تناقل المرضى الأخبار عبر غرف المستشفى أن بونابرت وجيشه قد رفعوا الحصار عن عكا. فاستحوذ الخوف على الجميع. وتملك لالمان *Lallemand* شعورًا بالرعب من هذا الوضع، ثم انتابه شعور بالأسف المصحوب بالمرارة لأنه لم يشرب ذلك الحساء

٥٥



جندي من الفرسان من الفوج الثامن عشر في ثوبه الرسمي. فقد أمر الجنرال مينو *Menou* جميع القوات بارتداء معطف من الصوف (على الطراز العربي) ليلًا. وقد صُمِّمت معاطف الفرسان لتكون فضفاضة، كما زودت -أحيانًا- بقلنسوة.

الذي كان من شأنه أن يضمن له موتًا رحيمًا، مما قد يعفيه من العذاب في مذبحة متوقعة على يد عدو همجي. ومع تلك

الخواطر المرعبة، فقد حزم أمره وصمّم على شرب الحساء. بيد أن الجهد الذي بذله في البحث عن الوعاء الذي وضع فيه المرق البارحة تسبب في تشنج كلّي بجسده، وسرعان ما شعر بأن الدمامل والثآليل التي تسبب بها الطاعون قد فتحت من جديد، واستولى عليه شعور بالألم المبرّح. ونتيجة لذلك فقد الوعي لفترة امتدت حتى فجر اليوم التالي. ثم لم يلبث أن استيقظ على صوت الجلبة التي انتشرت في أرجاء المستشفى. حيث فتح بعض الأتراك باب غرفته بصخب، ودخلوا وسيوفهم مشرعة في أيديهم.

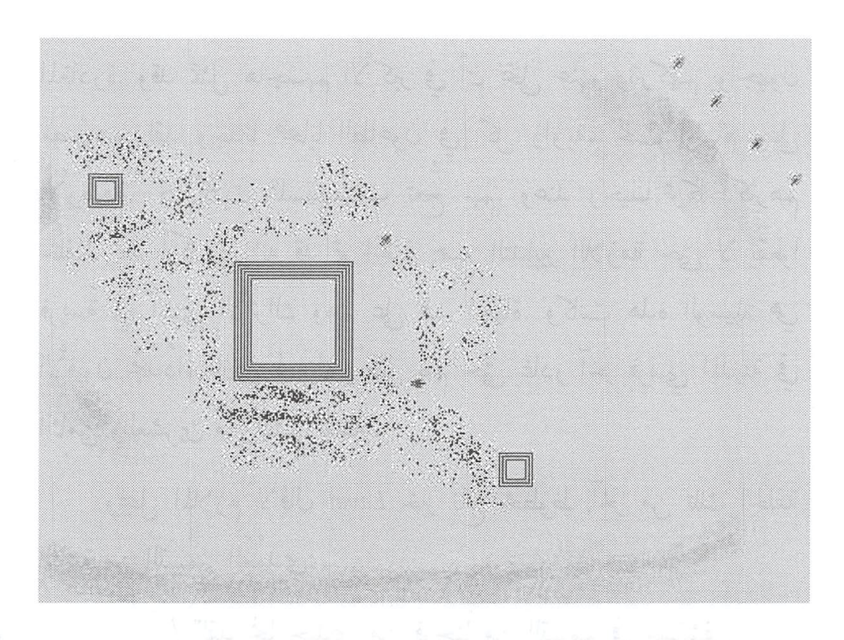
لقد أكد لي لالمان *Lallemand*، أنه قد احتسب نفسه في عِداد الموتى عندئذ. ثم لم يلبث - بعد أن لاحظ عن كثب تحركاتهم- أن رأى تعبيراً في وجوههم ينمُّ عن الشفقة، وبينما استولت المفاجأة الممزوجة بالرعب عليه وعلى العديد من المرضى والمحتضرين، رفع الأتراك أيديهم إلى السماء، وألحوا في الدعاء برفع هذه الكارثة. ثم أرسلوا على الفور في طلب الماء الساخن وطالبوا أولئك المرضى الذين يشعرون بالبرد بشربه. لقد نجا أولئك الذين قاوموا شرب الحساء المسموم؛ حيث تماثل للشفاء قرابة أربعين شخصًا بسبب عناية الأتراك. كما زارهم مفوض من قبل الحكومة الفرنسية بصحبةِ جراح. فأما الذين تعافوا فقد خيِّروا بين أمرين: إما أن يدخلوا في خدمة الدولة العثمانية، أو أن يتم نقلهم إلى أقرب مركز فرنسي. فاختارت الأغلبية الدخول في خدمة الدولة العثمانية،



قارع الطبل، وجندي من الرماة وأحد المهندسين العسكريين من الفوج الخامس والعشرين في الزي المعدل بأمر من الجنرال كليبر *Kléber* في ١ أكتوبر ١٧٩٩. حيث يبدو أن الأوامر قد صدرت للقوات إما بارتداء المعاطف القرمزية أو السترات الحمراء إبان الشروع في قتال البريطانيين.

وسرعان ما أصبحوا أكثر أعداءنا مهابةً وخوفًا بالنسبة لنا. أما بالنسبة للالمان *Lallemand*، فقد فضَّل العودة إلى فرنسا".

وفي الرابع والعشرين من مايو وصل الفرنسيون المنسحبون إلى يافا،



كروكي رسمه موران *Morand* بيده ويظهر التشكيل الأولي للجنرال ديزيه *Desaix* في معركة سدمنت *Sediman*. فبعد عدة محاولات فاشلة للهجوم على المربعات الفرنسية ركز المماليك جهودهم على المربع الصغير (إلى الأسفل) وتمكنوا أخيرًا من كسره.

حيث تركوا هناك عدة مئات من الضحايا الفرنسيين المصابين بالطاعون. حيث ذكر الرقيب بونيفونس *Bonnefons*: "وصلنا إلى يافا في الصباح. كان محظورًا علينا دخول البلدة بسبب العدوى التي انتشرت هناك، لذلك بحثنا عن مأوى يصلح لنا بين أشجار الليمون المحيطة بظاهر المدينة".

ويتذكر جان پيير دوجيرو *Doguereau*: "ليس ثم مشهد أفظع من المشهد الذي وقعت أعيُننا عليه في ميناء يافا، حيث كان الميناء يعجّ بالموتى والمحتضرين الذين توسلوا إلى المارة من أجل المال، أو من أجل ما يصلح كضمادة للجروح، أو من أجل إيجاد محل لهم على متن القوارب

المغادرة. وقد تمثل هاجسهم الأكبر في أن نتخلى عنهم ونتركهم يواجهون مصيرهم. لقد وجدنا ضحايا الطاعون في كل زاوية، تحت الخيام وعلى الأرصفة. كما كانت المستشفيات تعجُّ بهم. وعند رحيلنا تركنا أكثرهم خلفنا. لقد أُكد لي أنه قد تم اتخاذ جميع التدابير اللازمة حتى لا يقعوا فريسةً في أيدي الأتراك وهم على قيد الحياة. وكانت هذه الوسيلة هي الأفيون مجدداً، الذي لم يزل يُعْطى لهم حتى غادر آخر فرنسي المدينة في الثامن والعشرين من الشهر نفسه".

وسجل الملازم لاڤال *Laval* خبر ناج محظوظ آخر من تلك الحلقة الثانية من التسميم العَمْدي:

٥٦ / "لقد نجا جندي من فوجنا من التسمم في مستشفى يافا، إذ أُكد لي أن مشروباً قد أُعطي له، بزعم منحه القوة والقدرة للمرضى والجرحى على اجتياز الصحراء القاحلة، لذلك فقد انتهز ذلك الجندي الفرصة عندما وجد نفسه قريباً من القدر *marmite*، وأخذ جرعة مزدوجة من ذلك الشراب، وأجبره ذلك على التقيؤ... وسرعان ما رأى موت معظم رفاقه، الذين كانوا في مثل حاله وتجرَّعوا هذا الشراب. ثم أخبرني هذا الجندي أنه غادر المستشفى وأخذ طريقه مُتعقباً الجيش الذي كان قد غادر بالفعل، فتبعنا من بعيد وحرص أن يجعل نفسه متأخراً عن ركبنا بنحو مائة خطوة، كما حرص على التخفي جيداً حتى لا نراه".

أنشودة الرحيل	**Le Chant du départ**
النصرُ يشدو	*La victoire en chantant,*
فها نحن قد فتحنا البوابة	*Nous ouvrons la barrière,*
كي تقود الحرية خَطْوَنا	*La Liberté guide nos pas,*
فمن الشمال إلى الجنوب	*Et du Nord au Midi,*
ستدوي أبواقنا	*La trompette guerrière,*
وقد حانت ساعة القتال	*A sonné l'heure des combats,*
عندئذ يرتجف أعداء فرنسا رعبًا	*Tremblez ennemis de la France,*
ويتجرع الملوك الدَّم ممزوجًا بالكبرياء	*Rois ivres de sang et d'orgueil,*
ويتقدم الشعب صاحب السيادة	*Le peuple souverain s'avance,*
بينما يهوي الطغاة في نعوشهم	*Tyrans descendez au cercueil,*
الجمهورية تدعونا	*La République nous appelle,*
فإما الظفر وإما الموت	*Sachons vaincre ou sachons périr,*
وعلى الفرنسي أن يعيش لها	*Un Français doit vivre pour elle,*
أو أن يموت في سبيلها.	*Pour elle un Français doit mourir.*

أما أولئك الذين لم يصبهم الطاعون أو لم يصابوا في المعارك فقد عانوا بشدة أثناء المسير. فقد ذكر بونيفونس *Bonnefons* "سمعنا أصوات طلقات نارية قادمة من قافلتنا. فذهبنا حثيثًا للوقوف على جلية الأمر. أواه، يا إلهي، أي مشهد يكسر القلب! بعض الجنود الذين لم يعد بإمكانهم الصمود أكثر أمام العطش الذي فتك بهم فتكًا، قتلوا أنفسهم".

ومع استمرار المسيرة، وجد العريف كايو *Cailleux* أنهم مضطرون

"لحرق ذخيرة المدفعية، ونسف مخزون البارود، وإلقاء المدافع في البحر. وقد شيَّعت هذه المسيرة البائسة العديد من الجنود التعساء، سواء من الجرحى أو من ضحايا الطاعون، إلى حتفهم. بحيث إن الجثث التي خلفناها على رمال الصحراء المحرقة كان يمكن أن تكون - ببساطة- علامات إرشاد دالة على طريقنا لهؤلاء الذين يرومُون تعقبنا!".

وأخيرًا ساد الارتياح بين هؤلاء الذين كتبت لهم النجاة عبر تلك الرحلة الشاقة، فقد عبَّر العريف بونيفونس *Bonnefons* عن ذلك الشعور على نحو أكثر وضوحًا من غيره: "وصلنا إلى بلبيس في الثالث عشر من يونيو. وغادرناها في اليوم التالي، وكانت فرحتنا عارمة عندما رأينا أهرامات الجيزة تلوح في الأفق. فاستبدلنا ذلك الحزن الأسود الذي استغرقنا طويلًا بفرحة جنونية عارمة. لقد أشرق علينا أخيرًا فجر يوم جيد!".



رسم تخطيطي يعود إلى عام ١٨٠٠ أعده أحد الفنانين بالحملة، حيث يظهر الجنود من الفوج الثامن والثمانين في الزي الجديد الذي أمر به كليبر *Kléber*.

• الوطن!

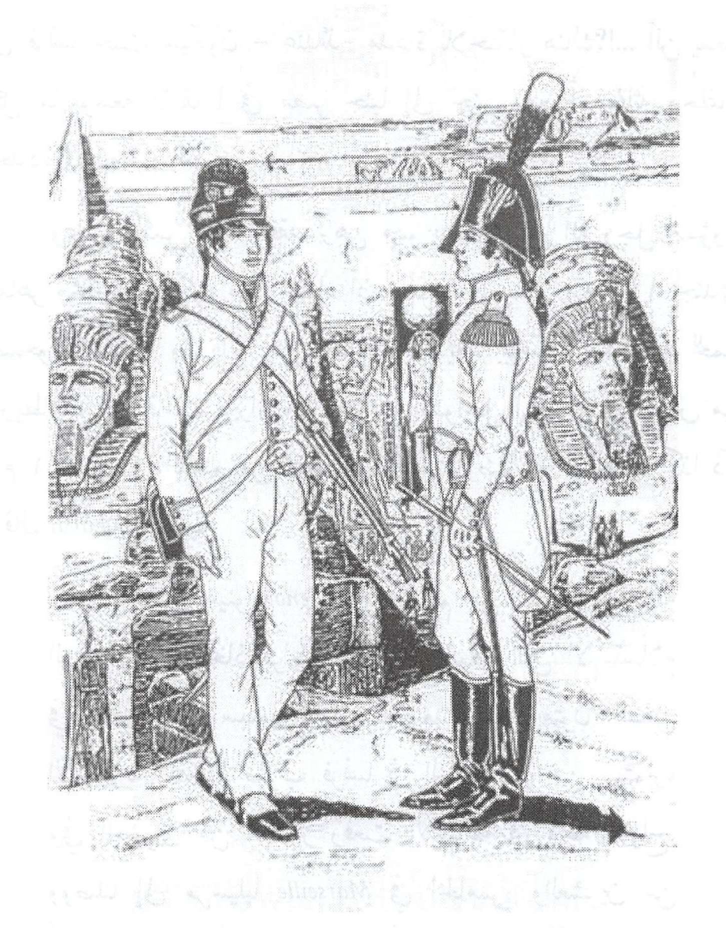
لم يمض وقت طويل بعد عودته إلى القاهرة، حتى قرر بونابرت مع مساعديه المقربين ترك الجيش سرًّا، والعودة إلى فرنسا. كشف مواريه *Moiret*:

"لم نكن مُستائين أبدًا من نبأ تولي الجنرال كليبر *Kléber* القيادة العامة، بل على العكس فقد كانت سمعته طيبة بين الجنود بالنظر لما عرف عنه من الإقدام والشجاعة منذ انتصاره في جيش الراين، وكذلك لما أبداه من التحفظ

والحذر - اللذين قدمهما على كل شيء- أثناء الهجوم على أسوار عكا.... ومن ثم فسرعان ما فاز بثقة الجيش. شخصيته معروفة لنا، وهي جدُّ مختلفة عن سلفه، وقد أدت أنباء توليه القيادة إلى إنعاش الأمل في نفوسنا بشأن إمكانية تفاوضه مع أعدائنا، إذ ربما وصل معهم إلى اتفاق يُعيدنا إلى أوطاننا. فأنا على يقين من أن بونابرت لم يفعل شيئًا إلا في سبيل مصلحته الشخصية، ولم يرى طريقًا سوى ذلك الطريق الذي يؤدي إلى رفعة شأنه.... فإذا لم يجد نابليون الفرصةَ مُواتيةً للاستيلاء على السلطة في فرنسا ما كان ليترك مصر البتة. لقد كان يسعى دائمًا لإنشاء دولة مستقلة حتى ولو على حساب دمائنا. كان مثله في ذلك مثل قيصر، فقد كان يفضل أن يكون رئيسًا في القاهرة، بدلًا من أن يكون نائبًا للرئيس في باريس!".

وعلى الرغم من تلك الأجواء من المتفائلة، لم يكن كليبر *Kléber* قادرًا على إنهاء التفاوض مع أعدائه ليُعيد جنوده إلى الوطن قبل اغتياله. وأخيرًا انتقلت القيادة إلى الجنرال عبد الله مينو *Abdallah Menou*، الذي أضاف إلى لقبه اسم "عبد الله" بعد اعتناقه الإسلام في سبيل الزواج من مصرية. وفي البداية تطيَّر مواريه *Moiret* من نبأ تعيينه قائدًا عامًّا:

٥٧ / "لم يكن الاسم الأول للجنرال الجديد مواتيًا له من جهة الشعبية بين الجنود: إذ إن الفكر الجمهوري *republicanism* الذي اعتنقه الجيش لم يخنق الاعتبارات الخاصة بالأعراف والأفكار الدينية وكل المعارف التي حصلناها في التعليم منذ



سافر خمسة وعشرين عضوًا من أعضاء فوج المنطاد الشهير إلى مصر بمنطادين فحسب. خسروا أحدهما عند غرق سفينة القيادة المشرق *Orient*، بينما اقتصر عمل الآخر على إثارة مخاوف النظارة من المصريين الحيارى والمنبهرين في أيام الاحتفالات.

نعومة أظافرنا، إضافة إلى عادات وتقاليد بلادنا. لقد كان مرتدًا - كما أشيع عنه- فهو الرجل الذي تخلى عن بلاده ليعتنق شريعة محمد ﷺ.... فهل بوسعه - بعد كل هذا- أن يفكر في التخلي عن عائلته الجديدة، ويعود

إلى فرنسا حيث سيكون - عندئذ- مدعاة للاحتقار هناك؟!... ألن يفعل كل ما بوسعه لإبقائنا في مصر جنباً إلى جنب مع أصدقائه وحُلفائه الجدد، وفي منفاه الطَّوعي هذا؟"

وعلى العكس تماماً، فقد برهن مينو *Menou* على أنه رجل مسؤول وماهر ومحترم، ولكن ماذا عساه أن يفعل بأقل من ١٤,٠٠٠ جندي يصلحون للقتال وللدفاع عن مصر؟ فلم يعد بوسعه التصدي للحملة البريطانية، التي قامت بإبرار جنودها على السواحل المصرية في مارس من عام ١٨٠١. "في التاسع من أغسطس/آب تفاوضنا مع الإنجليز" كذا ذكر لاڤال *Laval* باقتضاب.

> "استسلم مينو *Menou* على الرغم من الصعوبات الجمة التي اكتنفت اتخاذ قرار كهذا. وتم التوقيع على الاستسلام في الثاني من سبتمبر/أيلول، وصعدنا على متون السفن الإنجليزية المتجهة صوب فرنسا في الرابع عشر من سبتمبر، وفي العشرين من سبتمبر رُفعت الأشرعة في وجه الرياح. ووصلنا إلى مرسيليا *Marseille* في الخامس والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول. وبعد ثلاثة أيام غادرت الحجْرَ الصحي".

دامت غربة لاڤال *Laval* عن فرنسا أكثر من ٤١ شهراً، ولم تكن هناك ستة هكتارات من الأرض بانتظاره عند عودته كما وعدوه! أما بالنسبة للرقيب بونيفونس *Bonnefons* فقد كان كافياً بالنسبة له أن ينجو بنفسه سليماً مُعافى كي يشعر بالفضل والامتنان، حتى إنه توجه إلى الله بهذه الصَّلاة الشاكرة:

"أشكرُ العناية الإلهية، وأحمد الله قبل كل شيء، لأنه أنعم عليَّ فأبقاني آمنًا مُعافىً وبعيدًا عن المخاطر. ولي أن أضيف أنني لن أنسى هذا الفضل الإلهي حتى الرمق الأخير في حياتي".

• ما قبل الببليوجرافيا:

أُعيد طبع عدد كبير من المذكرات والتقارير الممتازة عن الحملة ورجالها في فرنسا، وذلك بمناسبة حلول الذكرى المئوية الثانية على الحملة الفرنسية على مصر. وبادئ ذي بدء، فإننا ننصح القارئ بشبكة الإنترنت التي تُعطي روَّادها من القراء المهتمين الفرصة للوقوف على مختلف الموضوعات النابليونية *Napoleonic subjects* ومناقشة جوانبها المتعددة في المنتديات المتخصصة، فضلًا عن تلك الروابط الخاصة بالجمعيات والمجموعات المهتمة بإعادة تمثيل الوقائع التاريخية كما وقعت *re-enactment groups* وكذلك المتاحف في جميع أنحاء العالم.

إننا نزكي بشدة زيارة إلى المجموعات المحفوظة في: متحف الجيش *Musée de l'Armée* ومتحف الأعياد والاحتفالات *Musée de Carnavalet* بباريس. كما ننصح أيضًا بزيارة قصر فرساي *Palace of Versailles* الذي يحتوي على العديد من اللوحات المشهورة التي تخص الحملة على مصر. كما يستحق متحف دي لا مارين *Musée de la Marine* في باريس زيارة خاصة لعرضه نماذج من السفن التي تنتمي إلى تلك الحقبة.

أما أولئك الذين يرغبون في إجراء أبحاث ودراسات أكثر تعمقًا فعليهم بزيارة أرشيف المحفوظات العسكرية في شاتو دي ڤينسين *Château de Vincennes*، حيث يمكنهم الاطلاع هناك على الوثائق والأوراق الخاصة بالجنود الناجين من الحملة. وبالنسبة لهؤلاء الراغبين في رؤية القطع الأثرية المسلوبة من مصر إبان الحملة، وكذلك الوقوف عن كثب على أعمال علماء

الحملة، فعليهم بزيارة متحف اللوفر *Musée du Louvre* (باريس)، وكذلك زيارة المتحف البريطاني *British Museum* (لندن)، حيث لم يزل حجر رشيد *Rosetta Stone* يُعرض هناك، وهي زيارة مجدية للغاية.

• بيبلوجرافيا:

- *Anon, Journal d'un dragon d'Égypte* (*14e Dragons*) *Notes recuillies par le Ct M.* (1899).
- *Bonnefons, Sergent, Caporal Cailleux, Barallier, Souvenirs et Cahiers sur la campagne d'Égypte* (1997).
- *Denon, Vivant, trans. Francis Blagdon, Travels in Upper and Lower Egypt, Vol I* (1802).
- *Desgenettes, R., Histoire médicale de l'armée d'Orient* (1802).
- *Doguereau, Général Jean-Pierre, Journal de l'expédition d'Égypte* (1997).
- *Galli, H., Journal d'un officier* (*Vertray*) *de l'armée d'Égypte* (1883).
- *Grandjean, Lieutenant Laval, Journaux sur l'Expédition d'Égypte* (2000).
- *Gréverie, P. de la, Le Régiment des Dromadaires* (1910).
- *Jonquiére, C.E. de la, L'expédition d'Égypte, 5 vols* (1889–1902).
- *Laus de Boisy, Louis de, Bonaparte au Caire, Par un des Savans embarqués sur la flotte Français* (1799).
- *Le Couëdic, Stephane* (*ed*), *L'Ètat-major de Kléber en Égypte* (1997).
- *Milleliri, Jean-Marie, Medecins et Soldats pendant l'Èxpédition d'Égypte,* 1798–1799 (1999).
- *Millet, Pierre, Le chasseur Pierre Millet – souvenirs de la campagne d'Égypte* 1798–1801 (1903)
- *Miot, J., Mémoires pour servis à l'historie des expéditions en Égypte et en Syrie* (1814).
- *Moiret, Captain Joseph-Marie, trans./ed. Rosemary Brindle, Memoirs of Napoleon's Egyptian Expédition* 1798–1801 (2001).
- *Morand, Général Charles Antoine, Lettres sur l'Expédition d'Égypte/ Carnet de route de chef de brigade Rome à Assouan –* 1798–1799 (1998).

- *Roy, J., Les Français en Égypte, ou souvenirs des campagnes d'Égypte et de syrie par un officier de l'expédition* (*Chalbrand*) (1856).
- *Sanglé-Ferriere, un témoin anonyme et Général Dugua, Souvenirs, Journal et Correspondance sur l'Expédition d'Égypte et l'Armée d'Orient* (1998).
- *Schur, Nathan, Napoleon in the Holy Land* (1999).
- *Tortel, C. and Cartier, P., Bonaparte de Toulon au Caire d'après* 19 *lettres de François Bernoyer* (1996).

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٦/٢٥٨١٢

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-17-5